السعيد الشربيني الشرباصي

أدب الأخوة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى . . .

إلى كل أخ يضع يده فى يد أخيه ليكون من هذا الرباط الروحى المقدس وسيلة للتقدم البشرى والعون الإنسانى .

إلى الإخوة فى المنصورة ومعهم ذقت لذة الكفاح .

إلى الإخوة فى الكويت وقد عرفت بهم انفساح الدائرة لفكرة الأخوة .

إلى الإخوة فى العراق وسوريا ولبنان وشمال أفريقيا .

إلى كل أخ فى بقاع العالم أقدم هذا تبصرة بحقوق الإخاء .

ليكون من وراء ذلك الحب والسلام . . .

السعيد

افتتاح

مرحلة الحياة التى نحياها ، أهى فترة نعيشها ، أم نتعلمها ؟

الحق أنه لا يمضى يوم جديد إلا ونتلقى فيه درساً جديداً فاتنا أن نتعلمه منذ عهد بعيد ، ونظل على طول الطريق نستوضح المعالم . ونستكشف الأسرار إلى أن تغمض عيوننا فنستريح .

وعندما يكون نصيبنا من هذه الحياة عظيما ، وجهدنا بها قويا يكون بلاؤنا بها عظيما وقويا . وفى باكورة الشباب حيث تتفجر فى شراييننا ينابيع القوة والفتوة تعرض لنا مشكلات لاحد لها ، لأننا فى هذه الحقبة ندق باب الحياة فى قوة وعنف . وكل مشكلة من هذه المشاكل التى تتصل بعلاقاتنا بالناس ، أو بعلاقاتنا مع معاشرينا ، أو تمتد إلى نظامنا الخاص أو العام ، تأخذ حظها من الحيرة والصراع بين جنباتنا . وخلال ظلام هذه المشاكل نلتمس الخلاص ، ونبحث عن الشعاع الهادى ، الذى قد نلتمسه فى نصيحة مجرب ، أو استفتاء لمحرر صحيفة . ولكن هذا الضوء لا يغنى الغناء الكافى .

فنحن لا نقبل النصح إلا إذا اقترن برغباتنا ، وصادف جانبا من إرادتنا . أما إذا تعارض مع هذه الإرادة ، فإننا نلقى به دبر آذاننا ، وخلف ظهورنا . ولهذا كان من التعريفات اللاذعة للمشورة قولهم : « المشورة أن تسأل غيرك موافقتك على مشكلة قطعت فيها برأى » . وكذلك الحال فى استفتاء محررى الصحف فإن الحكم الذى يعطى للشاب يكون نتيجة لدراسة قاصرة ، مهما بلغ من الدقة لا يكون إلا معالجة لجانب خاص من جوانب المشكلة .

وخذ مثلا مما يكثر حوله الاستفتاء وهو مشكلة الزواج فإن العامل الأكبر لعزوف كثير من الشباب عن الزواج لا يعزى إلى الحاجة أو الظروف الاجتماعية ، وإنما يعزى لحيرة الشاب فى الاهتداء إلى حل لهذه المشكلة على ضوء سليم ، ونهج مستقيم .

والسبيل إلى الخلاص من هذه الحيرة هو أن نعطى صاحب المشكلة فرصة لدراستها بنفسه ، وتبصيره بقواعد الأدب والخلق . ونوقفه على مواضع العبرة والعظة ليتصرف

بمقتضاها ويعمل على ضوئها . فتنمى فيه الشخصية والاعتداد بالنفس . ويستطيع على ضوء هذه المبادئ أن يحاسب نفسه فى جرأة وصراحة دون غموض أو خفاء ، كما هو الحال حين يقوم بعرض المشكلة على سواه ، فإنه يخفى جوانب هامة من المشكلة لا يرغب فى وقوف أحد عليها .

ومحررو الصحف حسنو الظن حينما يعتقدون أن الشاب فى هذه الحقبة يبادر بتنفيذ مايقدم إليه من مشورة أو إجابة إذ ليس من السهل على الشاب فى هذا العصر الذى تختلف فيه الآراء والتفسيرات أن ينقاد لرأى صحيفة أو صحفى حينما يوجهه إلى حل لمشكلته .

وإذا كان الأمر كما أسلفت فليس من الخير أن يتولى الأساتذة فى المدارس ، أو المحررون فى الصحف ، فرض آرائهم على الشبان ، وإنما علينا فقط أن نعينهم على التفسير الصحيح لمبادئ الخلق وقواعد الشرف ومناهج الاستقامة . وما يقال عن مشكلة الزواج يقال عن غيرها .

ولكن أين يجد الشاب هذه المبادئ ؟ أيلتمسها من

قصاصات الصحف والمجلات ؟ أم يطلبها فى بطون الكتب ، وخفايا المراجع وخباياها ؟!. والحق أن المكتبة الإسلامية غنية بالحديث عن الأخلاق والآداب العامة ، ولكنها كتب جامعة حشدت فيها صفات الفضائل ومكارم الخلق ، فلا تتيح الفرصة للقارئ العصرى كى ينتفع بما حوت . فحياتنا الحاضرة حريصة على الزمن والجهد والسرعة والتخصص .

ولهذا فكرت فى إصدار هذه السلسلة عن « أدب الإسلام » ، يعالج كل كتاب مستقل موضوعا خاصاً من نواحى هذه الآداب ، فى صورة واضحة بأسلوب ملائم تجتمع فيه خصائص العصر الحديث من السرعة وقلة الجهد وتخصيص كل مشكلة بحلقة مستقلة .

وقد اخترت بدء هذه الحلقات بالحديث عن (أدب الأخوة) فى الإسلام ، لأن الأخوة عنصر عام يشترك فى معالجته كل من على ظهر هذه المعمورة . وما منا إلا وهو يحس بحاجته إلى التعرف على نهج الإسلام فى معاملة الإخوان . والمرء بطبيعته مجبول على المعاشرة والمؤاخاة والاجتماع .

فإذا وفق الله وكتب لهذه الحلقة القبول مضينا فى الحلقات الأخرى من آداب الإسلام .

* * *

وقد وضعت نصب عينى فى هذه الحلقة التى بين يديك عن « أدب الأخوة » ألا أحلق فى سماء الفكر ، فأجعل منها بحثاً علمياً دقيقاً جامعاً ، يقوم على مناقشة النصوص واستخراج النظريات ، والاستقصاء فى البحث ، والعمق فى الفكرة. حتى يكون بحثاً علمياً يرتفع إلى مستوى خاص :

كما لم أحاول أن أنزل به إلى مستوى شعبى مبتذل ، أبحث فيه عن الطريقة لاسترضاء العواطف ، واستدرار الرضا والثناء الرخيص والشهرة الزائفة . وإنما حاولت أن أسلك سبيلا وسطاً بين النهجين ، ليجد فيه الخاص ترويحة عن نفسه ، وليلتمس فيه العجل تحليقة عن مستواه .

والله أسأل أن يجعله لوجهه خالصاً ، وأن يوفق لإتمام ما بدأت . إنه سميع مجيب .

القاهرة فى { ذى الحجة سنة ١٣٧٢ هـ / أغسطس سنة ١٩٥٣ م

السعيد الشربينى الشرباصى
من علماء الأزهر

بين المودة والقربى

(١)

من كلام أحد الصوفية :

« إن الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رُفع الآخر معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض ؛ لأن الأخوة عمل كالولادة » .

وفى هذا الكلام الهادئ البسيط إجابة لخاطرة تخطر بالنفس تستوحى بها أسرار الأخوة وروابط المودة التى تشد المرء بمن يهواه ، وتربطه بمن يحن إليه ويألفه ، ويهدأ إذا رآه ، ويستوحش إذا غاب عنه ، ويأنس بالحديث إليه فيبثه أشجانه وأفكاره ، ويهديه آماله وأحلامه .

لقد كشف الله عن بصيرة هذا الصوفى — وعند ما تصفو النفس وتستغرق فى عالم السماء ترى ما خلف الأستار — وإذا به يعلل الصلة بين الإخوان بأنها عمل تقوم به القلوب ، فتتزاوج وتتمازج ، فيتولد من هذا الاتحاد الحب وتنمو

الصداقة وتتأكد الألفة والإخاء ، كما أن الأنثى تجتمع بالذكر فيتلاقيان ويتحدان فيكون من هذا التلاقى نتاج هو البنوة .

وإذا استعرضنا التاريخ الإسلامى نجد أن الملة السمحاء قد أقامت لعمل الأخوة وصلة المودة حقوقاً وواجبات لا تقل بحال من الأحوال عن حقوق صلة القربى والنسب وواجباتها . وكان أول عمل بدئت به هذه الحنيفية السمحاء — حينما أُذن لها بالفرار من مكة إلى المدينة ، وحينما هاجرت العقيدة من أرض الاضطهاد إلى ملاذ الأمن ، فأصبح لها دار حكم ، ومنزل استقلال — أن أرست قواعدها الأولى ، وافتتحت الدولة الإسلامية الجديدة باسم الإخاء والوداد ، فآخى القائد الأعلى للدولة محمد عليه الصلوات والتسليمات بين المهاجرين والأنصار ، واتخذ لنفسه أخا من بين صحابته . وقد بلغ من قوة هذا الإخاء وشدة الصلة بين الأفراد أن بعض الأنصار حاول النزول لأخيه عن إحدى زوجاته . وهذا تصرف بعيد فى الإيثار والتضحية ما أظن أحداً يقدم عليه مع أخيه من أمه وأبيه .

وبدت قوة الإخاء فى صورة أخرى حينما أقر الإسلام نظام التوارث بين الأخوين فى الإسلام . إلى أن نسخ فيما بعد ، وقصر نظام الإرث على أخوة النسب والأصلاب .

وإذا استعرضنا مظاهر الأخوة فى الإسلام وجدنا أن لها صوراً ثلاثا : الأولى وهى أخوة النسب والقربى وتقوم على اتحاد الدماء واتفاق الأصول والأرحام . والثانية أخوة الرضاع وهى تمت بصلة وثيقة إلى الأولى ؛ لأنها تعتمد على وجود اشتراك مادى من (اللبن) بين الأفراد . والثالثة : هى الأخوة فى الله ...

(٢)

ولكن أى لون من هذه الأخوة أحق بالتقدير ؟ .

نجد أن أخوة النسب والرضاع تعتمد على اتصالات مادية عمادها اللحم والدم ، والأصل والرحم ، والفراش والمهد . فهى إذن تقوم على اعتبارات جسدية صرفة ، يرجع معظمها إلى الصدفة ، وإلى الارتباط القهرى بفعل الزمن أو تحت ضغط الظروف .

أما أخوة الود والدين فتقوم على صلة القلب بالقلب ،

وتآلف الروح مع الروح ، واتحاد الغاية والبداية فى القصد والهدف . فهى إذن تقوم على مبدأ روحى أصيل ، وعلى عناصر مزاجية صادقة .

وإذا استمعنا إلى ما قاله أحد الحكماء فى المقارنة بين الأخوتين نستطيع الحكم عليها . فقد قيل لبزرجمهر : « من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال : ما أحب أخى إلا إذا كان لى صديقاً » . وقال أكثم بن صيفى : « القرابة تحتاج إلى مودة . والمودة لا تحتاج إلى قرابة » . وهذا يدلنا على أن الأخوة الجسدية لا تستوجب الحب ، ولا تستلزم الألفة والود . وإذا تذاكرنا كثيراً من الأسر نجد أن العداوات والخلافات قد تشتد وتتعاظم بين الإخوة فى الأسرة الواحدة . وأعرف رجلا له أخوات يعشن معه فى مدينة واحدة ، لا تنقصها المواصلات الحديثة ، ولا يشقها نهر عظيم لا يُستطاع عبوره ، ومع ذلك لم ير وجه أخواته منذ سنوات ، ومنذ قسم الميراث . وفى هذه الحقبة المديدة لم تخطر ببال السيد الأخ فكرة السؤال عن واحدة منهن ، أو مشاركتهن فى وفاة أزواجهن ، أو السير فى جنازة إحداهن .

وأنا صادق فيما أذكر عن هـذا السيد الأخ ، وتصرفه هذا يفسر لنا بوضوح العلاقة التى تقوم بين القرباء ، وأنهـا علاقة مادية جافة ، وعندما تنتهى الأطماع تزول هذه العلاقات .

وأعرف رجلين آخرين فى قريتنا استحقا السخط من الله ومن الناس لأنهما ظلا عدة أعوام متخاصمين وهما أخوان وجاران يسكن أحدهما وجدار منزله إلى جوار منزل شقيقه الآخر . ولقد أدرك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ببصيرته النيرة ما يمكن أن يقوم بين القرباء من خلاف فكان مما كتبه إلى أبى موسى الأشعرى قوله :

« مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا » . وقد شاع على ألسنة العامة مثل حزين يصور حالة نفسية مؤسفة وهو قولهم :

« الأقارب هم العقارب » . ولقد قال رجل لخالد بن صفوان : إنى أحبك . فقال له : وما يمنعك من ذلك ، ولست لك بجار ، ولا أخ ، ولا ابن عم [١] .

---

(١) ص ١٥٩ — العقد الفريد ج ٢

وفى الشعر العربى مثل رائعة ، وصور طريفة تكشف لنا عن طبائع النفوس ، وأن الحب ليس وليد القربى . وإنما هو وليد شىء آخر ، ومن هذه الصور الطريفة ما قاله ذو الأصبع العدوانى :

لى ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فأقليه ويقليـــنى
أزرى بنا أننا شـــالت نعامتنا
فخالنى دونه أو خلتـــه دونى
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى
أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى
ألا أحبكم إن لم تحبـــونى

وهاك آخر أصابه مثل ما أصاب السابق من بنى عمه ، يذهب يبث شجونه فى نغم شعرى موجع ، ويناجى بنى عمه بقوله :

مهلا بنى عمنا مهـلا موالينـا
لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

الله يعـــلم أنا لا نحبـــكم
ولا نلومكم إن لم تحبـــونا

وهذا ثالث وهو الحسن بن هانئ يقول :

وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره
كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار فى حجره

فلم هذا العداء كله ، وهناك رابطة وثيقة من الدم واللحم والعظم والشحم ؟ أليس ذلك نتيجة حتمية لعدم التآلف الذى يفتقد فى كثير من الحالات بين الأقرباء فيصبحون الأعداء الألداء . وقد يوجد كثيراً بين الغرباء فإذا بهم يصبحون الأحباء الأوفياء ؟ وأليس ذلك هو عين ما أشار إليه أستاذنا الأول محمد — صلى الله عليه وسلم — حين قال :

« الأنفس أجناد مجندة ، وإنها لتتشام فى الهوى كما تتشام الخيل ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وقد نظمه الشاعر فى قوله :

إن النفوس لأجناد مجندة
بالإذن من ربنا تجرى وتختلف

---

(١) رواية عن العقد الفريد .

فما تعارف منها فهو مؤتلف

وما تناكر منها فهو مختلف

وهذا شاعر آخر يشارك الصوفى الأول فى اتجاهه حين يقرر أن المودة عمل كالولادة ، فيرى أن هناك صلات تقوم مقام النسب إن فقد النسب بين الإخوان . ويرى أن هذه الصلات تقوم من الإخوان مقام الأب الذى منه تصدر أخوة اللحم والدم . واسمعه يقول :

إن نفترق نسبا يؤلف بيننا

أدب أقمناه مقام الوالد

ويستطيع كل مسلم فى أى بقعة من بقاع العالم أن يلقى أخاه المسلم فى أى جهة من جهات المعمورة فيحس أنه يلقى فيه أخاه ، ويطالبه بحقوقه ويؤدى له واجباته ، جاعلا نصب عينه أن ما يربطه به من روابط لا تقل عن روابط الدم ، وأنه إن افتقد الوالد الواحد الذى يجمعهم إلى أصل واحد ، فإنه لا يفتقد العقيدة الواحدة التى تجمعهم فى أسرة واحدة . وما عليه إلا أن يتمثل دائماً بقول الشاعر السابق مع تغيير لفظة واحدة منه ليكون التعبير صريحاً ، فينشد :

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا
دين أقمناه مقام الوالد

وقد علمت أيها الأخ أن المرء لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أعز عليه من ماله وولده ، ومن كل شيء سواهما .. فتبين على ضوء هذا المقياس موقع رباط المودة والأخوة الربانية من قلبك ...

(٣)

وليس العامل الوحد للحب والألفة هو القرابة فحسب ، بل هناك عوامل أخرى لها أهميتها . وقد بين أستاذنا الأول السر الأصيل فى الألفة والود ، حين حلل النفوس البشرية فإذا بها أجناد مجندة ، وطيور هائمة تبحث عن أجناسها ، وتتصيد أشباهها ، لتأوى إليها ، وتحط بأجنحتها حولها . وأنها كالخيول التى تتشام وتبحث عن أنماطها ونظائرها . فإذا ما وجدتها اتحدت معها وتآخت وإياها . أما إذا شمت ما ليس على نهجها وطبعها تناكرت وتنافرت :

والإلف ينزع نحو الآلفين كما طير السماء على ألافها تقع

والائتلاف يأتى من وجود عنصر مشترك بين النفسين

وهذا العنصر هو الجامع والرابط بين الروحين ، وهو المدار الذى ينجذب نحوه القطران . . . ويكون العنصر المشترك أقوى ما يكون عندما يمس أقوى عاطفة فى النفس البشرية ، ألا وهى عقيدته وإيمانه . وعلى أساس هذه العقيدة ، وعلى مقدار قوتها وثباتها فى النفس تكون قوة ما يبنى عليها ويرتبط بها . وهى لذلك تختلف قوة وضعفا بقدر اتصالنا بالله وتمسكنا بتعاليمه . وعند ما تصير القلوب مستمسكة بحبل الله يمتد حبل الله فيربط القلب الفرد بسمط القلوب جميعا وتتكون من ذلك الحلقة المفرغة التى لا تميز بين أطرافها . وعندئذ تتضاءل حبال القربى التى تقوم على النسب أو على المصاهرة :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم
وبلوت ما وضعوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطعا
وإذا المودة أقرب الأنساب

والعقلاء ينظرون إلى بواطن الأمور ، وخفايا الحقائق ، وإلى ما وراء الظواهر . وهم لذلك لا يعدون القربى لمن قرب

إليك نسبه ، واتصل بك حسبه . وإنما القربى لمن صحت مودته ، وطابت عشرته ، ولانت عريكته :

ما القرب إلا لمن صحت مودته
ولم يخنك وليس القرب للنسب
كم من قريب دَوِىّ الصدر مضطغن
ومن بعيد سليم غير مغترب

وقالوا : « القريب من قرب نفعه » . وقالوا : « رب بعيد أقرب من قريب » . ومما أصبح يجرى مجرى الأمثال ما قاله الحكماء : رب أخ لك لم تلده أمك .

رب غريب ناصح الجيب وابن أب متهم الغيب

وعندما تتآلف القلوب وتتوافق الطباع وتتشابه الخصال تتكون العلاقة الأخوية الأصيلة التى تهون أمامها أخوة الآباء ، ويكون من أثر ذلك أن الإنسان يأمن صديقه وإن كان غريبا ، ولا يأمن أخاه وإن كان قريبا . ويصبح البعيد موضع الثقة ومرجع الأسرار ، بينما يصبح القريب وهو موضع الحذر منه ، وتطوى دونه الأسرار :

أخو ثقة يُسرُّ ببعض شأنى وإن لم تدنه منى قرابه

أحب إلى من ألفى قريب تبيت صدورهم لى مسترا به

وإذا كان الغرض من الأخوة هو التعاون فى السراء والبأساء وتحقق هذا بينك وبين قريبك سما القريب وكان فى عداد الإخوان . أما إذا كان القريب قد آثر قطع حبال المودة ، فإنك تسقطه من الحساب . ويصير نسيا منسيا ، هو والعدم سواء . وكم من أقارب للمرء لا يخطر أحدهم على البال إلا إذا ذكر به وهو لذلك كاره ! وكم من قريب نذكره ولكننا نبادر بإشاحة الخاطر عن ذكراه حتى لا تتكدر النفس بهذه الذكرى ؟ ! وكم من قريب لا نلقاه إلا تكلفا ، ولا نبادره بالتحية إلا تجملا ! ؟ .

فصل حبال البعيد إن وصل الـ

ـحبل وأقص القريب إن قطعه

فإذا وفق المرء فى اكتساب مودة الأقرباء ، وتمكين مودتهم ، واستطاع التغلب على ما يتركه الزمن ودواعى المعاملة والجوار والأحقاد المتوارثة ، والتنافس البعيد المدى فى نفوس ذوى الأرحام ؛ أصبح هذا المرء من نوادر

الكرماء ، وصار الصديق هو الشقيق . والشقيق هو الصديق وصح فيه قول القائل :

وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما أخو الأرحام

(٤)

ولعلنا بعد ذلك ندرك عن إيمان أن العواطف الأخوية التى تنبت الود ، وتثمر الحب ، وتدعو إلى التماسك ليست وليدة الأرحام والأنساب فحسب ، بل إن هذه الوشائج قد تتهاوى أمام ما هو أقوى منها من صلات ، وأثبت منها من أواصر . كما إذا بنيت الأخوة على أساس متين من العقيدة والدين ، فتظل ثابتة ما دامت العقيدة متغلغلة فى النفس ، راسخة فى القلب ، متمكنة من الفؤاد .

والنفوس التى فتحها الوهاب ذو الأفضال للإيمان تحس هذه المعانى ، وتشعر بالحب العميق المجرد لغيرها من إخوة الإسلام ، ولا تجد فارقا يفصل بينها وبين سواها من النفوس ، وتحس عن صدق وإيمان أن روحها ماهى إلا امتداد لروح عظيمة قد ألقت مراسيها فى مواضع مختلفة ، ووزعت أجزاؤها على أشخاص متعددة .

وتحس كذلك أنها ماهى إلا صدى من الأصداء المتكررة التى صدرت عن الإرادة الإلهية حينما قال الخلاق لها : كونى . . . وتحس أنها نغم مفرد من مجموعة الأنغام التى ينتظم بها عمار الكون وامتداد العالم . وتحس أن السر الذى أودعه الله إياها ماهو إلا جزء من سلسلة الأسرار التى تتكون منها قصة العالم وتاريخ الإنسانية .

وكلما تعمقت الفكرة الجماعية تلاشت الشخصية والذاتية (الأنانية) ، وبرزت الروح الجماعية التى تضم الأفراد كلها فى خيط واحد ، وتزنهم بميزان واحد .

ولو أراد شخص أن يُرجع آصرة العقيدة إلى أساس اللحم والدم لما أعجزه ذلك . ألسنا من آدم ؟ وأليست أمنا حواء ؟ فصلة النسب مجردة ماهى إلا صلة اللحم والدم فى بدئها وختامها . وصلة الأخوة ماهى أيضاً إلا صلة اللحم والدم فى أعمق جذورها ، وأول مطافها ، وعميق أدوارها . ولهذا نستطيع أن نقرر التقاء الأخوتين وتقابلهما فى نقطة واحدة ، وإنما يكون التفاضل بينهما بالود والائتلاف ، والعقيدة والدين .

وإذا كانت صلة النسب القريبة لايحسب لها حساب إلا إذا

انضم إليها عنصر جديد ووزن آخر وعادل يؤيدها ويقويها ، ويحميها ويحييها . فإن صلة النسب البعيدة التى تربط الإنسانية منذ آدم عليه الصلاة والسلام لاتنهض كذلك إلا بعنصر جديد ووزن آخر يؤيدها ويؤازرها ، ويحميها ويحييها . فإن لم يوجد هذا العنصر الائتلافى الجديد انعدمت وانحلت ، وعاد المرء إلى الأنس بالوحوش والنفرة من الناس :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

وإذا بحثنا فى العناصر التى تربط الناس بعضهم ببعض وجدناها تفترق بين عناصر مادية كاتحاد الأب ويسمى الأسرة ، أو كاتحاد المولد ويسمى بالوطن ، أو كاتحاد المهنة وتسمى الطائفية . وعناصر أخرى روحية كزمالة العلم وأخوة الدين .

وإذا وازنا بين هذه العناصر المختلفة بين المادية والروحية نجد أن أقواها وأحقها بالتقديس هى التى تقوم على أساس من العقيدة والدين .

وبذلك يمكن أن ننادى بوضع كل الصلات والروابط ، لترفع مكانها روابط الدين الصحيح الذى يمثله الإسلام الحنيف . وليكن هذا هو المبدأ الأول ، ولا يمنع منه انضمام عناصر أخرى ثانوية تؤيده وتوازره كعنصر الوطنية أو المهنة أو النسب . . .

ولكن . . .

ولكن على أن تبقى أخوة العقيدة هى الأساس .

« إنما المؤمنون أخوة . . . »

اختيار الإخوان

(١)

من المأثور عن السلف قول أحدهم : « استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك » . وروى فى غريب التفسير عند معنى قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » . أن معنى « ويزيدهم من فضله » يُشفعهم فى إخوانهم ، فيدخلهم الجنة معهم . ويقال : إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه .

وإذا علمت يأخى أن المرء يحشر مع قرينه فانظر — هداك الله — إلى من تختاره ليكون شفيعك يوم القيامة ، وتخير من تحشر فى زمرته يوم توضع الموازين بالحق ، ويأخذ كل عبد مقامه ومستواه عند العزيز الجبار . وقد قال الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

والصديق كالثوب يشف عن ذوق صاحبه وطبعه . « وصديق المرء مرآته تريه حسناته وسيئاته » .

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

ولهذا كان واجبك أن تدقق فى البحث عمن تؤاخى ، ولا تجعل الصدفة هى الفيصل فى الموضوع ، بل تأكد أن الصداقة معاهدة طويلة الأمد ، قد تمتد مع المرء حتى الأجل فعليه أن يحسن لنفسه اختيار الرفيق ، واختيار الرفيق قبل الطريق :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصاحب رقعة فى الثوب فلينظر الإنسان بما يرقع ثوبه » .

فاعتبروا الأرض بسكانها واعتبروا الصاحب بالصاحب

* * *

وقد اشترطوا فى الأخ الصالح عدة شروط :

وأولها العقل : وهو أصل الفضائل ، ولا خير فى صحبة الأحمق ، ومهما طالت صحبته فهى إلى القطيعة والشقاق ، لأن الأحمق لا يريح نفسه ، فكيف له بالراحة مع غيره . وقد قال على رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل وإيـــاك وإياه
فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه[1]

وقد يبذل الأحمق وسعه لنفعك ، ولكنه يضرك من حيث لا يدرى .

ولعلنا جميعاً قد قرأنا قصة الرجل والدبة التى كانت تحرس صاحبها وجعلت كلما نام تطرد عنه الهوام . وفى ذات مرة سقطت على رأسه ذبابة فطردتها مرة ثم نحتها أخرى ، ولكنها عادت . . . فما كان من الدبة إلا أنها أخذت حجراً وضربت به الذبابة وهى فوق وجه صاحبها فهشمت رأسه ، ومات لساعته ولهذا قيل فى الأمثال : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

إنى لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون

---

(١) ورد الشعر فى العقد الفريد ص ١٦٢ ح ٢ ، وينسب إلى آخرين

وقد قيل : مقاطعة الأحمق قربان من الله . وقال الثورى : النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة .

وحسبك من العقل ما قاله المغيرة بن شعبة حين سئل عن عمر بن الخطاب — رضوان الله عليه — : كان والله أفضل من أن يخدع ، وأعقل من أن يُخدع . وقد قال عمر عن نفسه : « لست بخب والخب لا يخدعنى » .

(٢)

الشرط الثانى حسن الخلق . وقلما يفارق حسن الخلق العقل . وكلام عمر يصور الرجل الكامل . فهو حين يقول : « إنه ليس بلئيم ولا بماكر » . وهذا هو حسن الخلق وفى الشطر الثانى يصور لنا العقل فهو لا يُخدع ولا يُغلب ولا يُستجهل من أحد لأنه يعرف طبائع النفوس ، فعمر يعرف الشر ولكن يتحاشاه :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتحاشيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وبعض النفوس توهب العقل ، ولكن لا يهديها إلى

كريم المحامد وطيب الخصال . وإنما يسوقها سوقا إلى دنىء الفعال فيتحول أهلوها إلى شياطين تجيد الإبقاع والإفساد والانتهاز والاستغلال . وهـذا النوع من الناس أخطر بنى البشر على الإنسانية . فواجب المسلم الحذر من سىء الخلق ومقاطعته . وقد قال عمر — رضى الله عنه — حاثا على طلب التدين فى الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب : « عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء » . وقد جمع علقمة العطاردى حسن الخلق فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة ، فقال له : « يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤنة مانك . اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها . اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . اصحب من إذا قلت صدّق قولك . وإن حاولتما أمراً أمرك ، وإن تنازعتما آثرك » .

وقال جعفر الصادق : « لا تصحب خمسة : الكذاب

فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ، ويبعد عنك القريب . والأحمق فإنك لست منه على شيء ، يريد أن ينفعك فيضرك ، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه . والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة . والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها » . . فقيل له : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ولا ينالها !

وهذا التفصيل الدقيق الذى ذكره الإمام جعفر الصادق يدل على خبرة تامة بطبائع النفوس ، وأسرار الطباع ، ولعلها الحكمة التى تحدرت عن لسان أحد رجال بيت النبوة الرشيدة بعد أن خبروا من الناس ما خبروا . . ! ! ومن ابتلى بصحبة الناس يعرف صدق هذا الكلام ، وأنه نتيجة للتجربة الطويلة والمعرفة الصادقة بأحوال النفوس واتجاهاتها .

وتأثير الطعام فى استخراج الأسرار وتغيير القلوب طريقة متداولة ، وكثيراً ما يلجأ إليها النفعيون لاقتحام الحصون المغلقة ، وقضاء المصالح المعقدة . ولا يحل عقدة اللسان إلا الجلوس على الخوان ، ولا يوهى العزائم إلا « العزائم »[1]

---

(١) العزائم بالتعبير العامى جمع (عزومة) أى دعوة لطعام .

ففراراً أيها الأخ من هـــذه السبيل .

والجنيد وهو من كبار الصوفية يرى أن صحبة الفاسق أهون من صحبة سيء الخلق : « لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارئ سيء الخلق » . وهذا كلام لا يقوله إلا صوفى يبحث عن الخفايا والأسرار . وهو يعلل هذا بأن جناية فسقه على نفسه أما حسن خلقه فلمعاشريه !

وقد كان كثيرون من الصوفية يرون فى صحبة الأشرار فرصة طيبة للعمل الصالح وللجهد المشكور ، فيكونون لهم قدوة توحى إليهم الخير والصلاح . ويعلق على هذا النهج الدكتور زكى مبارك — عليه رحمة الله — :« ولكن هذه النظرة الحكيمة ليست من حظ جميع الصوفية ، وإنما هى من حظ أشرافهم الذين أغنتهم نفوسهم عن كسب الشرف المزيف الذى يجتلب باسم الغيرة على الخلق والدين :

« والرجل النافع هو الذى يفكر فى إنقاذ من زلت قدمه ولا يشغل نفسه عن الواجب بترديد الصياح والصراخ .

« وعند هذه النقطة الدقيقة تزل أقدام كثير . . »

ومهما يكن من أمر فصحبة هذا النوع من الناس تحتاج

إلى حذر ويقظة وحسن تبصر بالعواقب . ومن حاولها وليس كفؤاً لها حمله الفاسق إلى ماخوره قبل أن يحمله المرشد إلى محرابه !

ولهذا قال بعض العلماء : « لا تصحب إلا أحد رجلين رجل تتعلم منه شيئا فى أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئاً فى أمر دينه فيقبل منك » . والثالث وهو الذى لا يفيد ولا يستفيد فلا خير فى صحبته . وقال المأمون : « الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت . والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط » :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم
لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هـذا له ثمر حلو مذاقته
وذاك ليس له طعم ولا ثمر

قال الغزالى : « فإذا لم يجد رفيقاً يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به » . قال أبو ذر — رضى الله عنه — : « الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة » .

(٣)

ومن تكره صحبتهم أيضاً الحريص على الدنيا ؛ فإنه يكون كالعلق تحمله على كاهلك ، ويمتص منك خيرك ، ولا ترى منه براً ؛ ولا تحس له نفعاً . ومع ذلك يكدر صفو العيش عليك بما يثير فى نفسك من دوافع الحرص والطمع ، ومخالطة البخلاء تحرك الشح والحرص بينما نفسك مجبولة على الكرم والسماح فتقع النفس بين الأمرين فيما يكدر صفوها وينغص عيشها ، وقد كانت بالبعد عنه فى سلامة . ولا يذكر الإنسان ما أنفق إلا عندما يرى من جمع . ولا يندم على ما قدم إلا عند ما يشاهد من أخر . . . والحريص فى حاجة إلى بخيل مثله ليمضيا فى شوط الكنز إلى النهاية ، إن كان للكنز نهاية .

والنفس بين الحيرة القاتلة من طبعها على السماح والكرم ، وطبع صاحبها من اللؤم والشح إما أن تظل فى ضيقها بصحبته وهى تقاوم وتجالد دوافع الحرص لتمضى على سننها ، وفى هذا من المشقة ما فيه ، وإما أن تنساق فى تيار صاحبها وتُعدى بدائه ، وتتشبه بطريقته فتتحول عن النهج السليم وتنحرف عن الطريق المستقيم .

ومعاشرة الحريص تحرك الحرص ، ومجالسة الكرام تعلم الكرم . ومصاحبة الشجعان تخلق الشجاعة . ومخالطة الزهاد تزهد فى الدنيا . ومزاحمة العلماء تفتق الذهن . وأوصى لقمان ابنه فقال له :

« يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك . فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر » .

حقوق الإخوان

رأينا فى بدء الحديث كيف يعتبر الصوفية الأخوة عملا من الأعمال التى تترتب عليها النتائج والأسباب . فهى كالولادة التى يترتب عليها قبل الوالد وتجاه الولد واجبات وحقوق . ولكن الغزالى — رضى الله عنه — لا ينظر إلى الأخوة والمودة هذه النظرة ، وإنما يعللها بتعليل آخر ، فهو يعتبرها رابطة بين شخصين ، لا كما يرتبط الابن بأبيه ، وإنما كما يرتبط الزوج بزوجه . وإذا كان الزواج يربط بين الزوجين برباط وثيق ، فكذلك عقد الأخوة فإنه يربط بين الأخوين بمثل هذا الميثاق .

ونظرة الصوفى قد تكون أدق وأعمق ، بينما نظرة الغزالى قد تكون أوضح وأبين ، لأن الزواج ما هو إلا تآلف بين شخصين من جنسين مختلفين هما الذكورة والأنوثة ، وارتباطهما بهذا التآلف على التعاون والنهوض بمشاق الحياة والمشاركة فى مباهج الدنيا . وكذلك الأخوة ماهى إلا تآلف بين شخصين من جنس واحد ثم ارتباطهما برباط الله علي

التعاون والتناصر والتناصح والإخلاص والبذل والتضحية حتى يصير الأخوان كاليدين تشد إحداهما الأخرى .

وسواء آمنا بنظرة الصوفى من تعليل رابطة الأخوة بأنها كالولادة ، أو بنظرة الغزالى من تعليله لها بأنها كرابطة الزوجية ، فإننا لا نختلف فى أن للولادة حقوقا وواجبات مقررة على الوالد وعلى المولود . وأن للزواج حقوقا وتبعات مقررة على الزوج وعلى الزوجة . وكذلك الأخوة ، فلها حقوق وتبعات وواجبات والتزامات تفرضها الشريعة والأخلاق وآداب السلوك والتعامل على كل من الأخوين .

فلأخيك عليك حق فى المال بالبذل والعون والإحسان والمساعدة . وله عليك حق فى النفس بالإيثار والتضحية والفداء والدفاع عنه ، وله عليك حق فى اللسان بالحمد والذكر الطيب والنصيحة ، وحق فى القلب بالعفو والرضا وحسن الظن والإخلاص له والوفاء ، وبترك التكلف معه وترك التكليف له .

الحق الأول :

المشاركة فى المال

(١)

فأول واجب على الأخ لأخيه هو أن يتذكر أن لافائدة من الأخوة إن لم تكن سلاحا نواجه به صعاب الحياة ، ونقف أمامها متساندين متعاونين . وكثيراً ما يفاجأ المرء بأزمات ، وتعتريه عقبات لم يكن لها فى تقديره حساب . . فعلى أخيه أن يقول له : هأنذا . . ! وليتقدم — بغير سؤال إلى بذل المساعدة وتقديم العون ، والتطوع بالخدمة لمعاونة صديقه . والرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . ويقول : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

ولا يقتصر العون الأخوى على تقديم دريهمات لا تغنى ولا تنفع ، بل على المرء أن يحس صادقا بأن أخاه شريكه فى

ماله ، وقسيمه فيما معه . وقد قسم العلماء مشاركة الأخ لأخيه فى المال إلى مراتب :

أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم له بحاجته من فضلة مالك دون أن تحوجه إلى سؤالك أو الطلب منك فإن أحوجته إلى السؤال فلست له بأخ .

والمرتبة الثانية أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك فى مالك حتى تسمح بمشاطرته فى المال . ومما ورد فى ذلك من المثل الطيب ما قاله الحسن : « كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه ! ! »

والمرتبة الثالثة وهى العليا مرتبة الإيثار بالنفس ، وبذل الروح فى سبيل الأخ . وهذه رتبة الصديقين ، ومنتهى درجة المتحابين . ومما ورد فى ذلك . أنه سعى بجماعة من الصوفية عند بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم . وكان من بينهم أبو الحسن النووى فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول ، فقيل له فى ذلك فقال :

أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة . وكان هذا التصرف النبيل سبباً فى نجاتهم جميعاً . ولماذا نذهب بعيدا

ونحن كلما ضربت لنا الأمثال من الماضى ابتسمنا وقلنا : ذلك عهد مضى وانقضى ، وتلك أمة قد خلت ، وأين نحن منهم ؟ فتعالوا إلى مثل قريب سمعته بأذنى من أحد إخوان الإسكندرية وقد مروا علينا ونحن فى المنصورة وهم فى طريق عودتهم من القنال بعد أن قاموا بالاشتراك فى حرب العصابات ضد القوات البريطانية . وقد أخذ فريق من إخوان المنصورة يبذلون جهدهم لحملهم على الكلام ، وبعد جهد جهيد ، وإقناع من أخ كبير ، أخذوا يقصون علينا آخر حادثة قاموا بها ، وهى حادثة نسف القطار الحربى الذى ختمت به الحوادث بعد أن تغير الجو السياسى فى القاهرة بمجىء حافظ عفيفى رئيساً لديوان فاروق .

فوصف الأخ كيف اجتمعوا واتفقوا على تنفيذ الخطة نهاراً جهاراً لأن القوات البريطانية كانت لا تسمح لقطاراتها بالسير ليلا . . . وكانت الخطة تقوم على أن يتولى واحد منهم تفجير الألغام بنفسه وإشعال الفتيل بها عندما يقترب القطار من اللغم معرضاً بذلك نفسه لشظايا اللغم ، ولرصاص حراس القطار . وكانت المهمة فيما بينهم شاقة لاختيار الأخ

الذى يقوم بهذا العمل . فقد كان كل واحد منهم يصر على القيام به والتقدم إلى الاستشهاد حريصاً على الموت دون إخوانه ، ولما اشتدت الرغبة بهم وكل فرد منهم يريد أن يكون صاحب المهمة لجئوا إلى إجراء القرعة لانتخاب من يقوم بتفجير اللغم . . . وتقدم من وقعت عليه القرعة سعيداً فرحاً . وكان من أثر هذا الإخلاص أن رعتهم عناية الله جميعاً ، فتام من عهد إليه بتنفيذ المهمة ، وأمكن أن يفلت من شظايا الانفجار ورصاص الأعداء ، وظلت عناية الرحمن معه تحرسه حتى بلغ مأمنه ، ولو نظر أحدهم تحت قدمه لوقع فى أيديهم: « والخير فى أمتى إلى يوم القيامة » .

ويقول الغزالى — رضى الله عنه — : « فإن لم تصادف نفسك فى رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد فى الباطن ، وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها فى العقل والدين . فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الأخوان بترك الأفضال فليواخ أهل القبور » .

(٢)

ويرى أبو حازم أن الأخوة فى الله يجب ألا تمتزج بأخوة

الدنيا . فيقول : « إذا كان لك أخ فى الله فلا تعامله فى أمور دنياك » . ويعلق الغزالى على قول أبى حازم تعليقاً يخرجه عن معناه . والحق أن وجهة أبى حازم وجهة جديرة بالانتباه إليها والتأمل الطويل فيها .

فليس من الكرامة أن يستغل الشخص المؤمن أخاه فى حاجة الدنيا باسم الإخاء ، وأن يسخره لتحقيق أغراضه ومآربه . . . ومن الخير أن نضع حدا بين العلاقة الأخوية المجردة القائمة على الحب والإخلاص ، وبين العلاقة المادية التى تقتضى المعاملة . ويعجبنى ما قاله عالم شاب : « تحابوا كإخوة وتعاملوا كأجانب » . إلا أن هذا القول ليس على إطلاقه ، فالواجب أن يكون بين الإخوة سماح وتضحية لا تصل إلى حد الاستغلال والتسخير . وإذا نظرنا إلى خلط المعاملة بالمودة نجد أنها كثيراً ما توهى أواصر المودات ، وتخلق العداوات . كما أن الشح القاتل فى المعاملة ينفر الناس ، ويفرخ الكراهة والبغضاء . وهذا السماح هو ما عناه على بن الحسين — رضى الله عنه — حين قال لرجل : هل يدخل

أحدكم يده فى كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ فقال الرجل : لا . . . قال : فلستم بإخوان .

وللصوفية فى هذا المجال مذاهب أقرب ما تكون إلى الشيوعية أو الاشتراكية المطلقة حتى إن أحدهم كان لا يصحب من قال : نعلى . . لأنه أضافه إلى نفسه فهم يرون أن المال مشترك بين الإخوان ، وأن الثياب أداة للاستعمال العام ، من حق جميع الإخوان أن يستعملوها ، حتى النعل لا يصح أن تكون لك خاصة ، دون بقية الإخوان .

وفى ذلك يقول أحدهم — سليمان الدارانى — : « لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له » . وهو القائل أيضاً : « إنى لألتمر أخى اللقمة فأجد طعمها فى حلقى » . وهذا والله كلام جميل ومعنى جميل . ولا يشعر بهذا إلا الأب حين يجلس إلى أولاده فيسقيهم العذب من الشراب فيسكر هو من غير شراب . ولا يشعر به إلا الكريم الذى تذوق لذة دعوة الإخوان إلى موائد الطعام . والكريم إذا رأى إخوانه يعملون أيديهم فى مائدته انتشى وانبسط وأما البخيل فكلما رأى المائدة تتداعى اهتم وانقبض .

فالصوفية يرون أن الأخوة تستدعى انفصام الحواجز ونسيان الحدود . جاء فتح الموصلى إلى منزل لأخ له كان غائبا فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه ، وأخذ حاجته . ثم أخبرت الجارية مولاها بما حدث . فقال لها : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله ؛ سروراً بما فعلت . وقال أبو سليمان : كان لى أخ بالعراق ، فكنت أجيئه فى النوائب فأقول : أعطنى من مالك شيئاً . فكان يلقى إلى كيسه فآخذ منه ما أريد فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شىء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبى . ويقول آخر : « إذا طلبت من أخيك مالا . فقال ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء »

(٣)

والحق أن إلغاء الفواصل والحدود منهج لا يقوى عليه إلا الأصفياء . وفرق ما بين الصوفية وأهل السنة أن أهل السنة لا يقرون إلغاء الحدود والرسوم التى وضعت للتعامل العام مع وجود السماح والفضل . وألسنا نرى أخوة النسب ترتبط بالحب والوفاء ومع ذلك فحدود المعاملة والمبادلة قائمة وجارية حسب ما تعود الناس . وفى قيام هذه الحدود أمان

من طغيان بعض النفوس . وشريعة الإسلام قائمة على احترام الحدود والأصول ، ولا تقر التنحى عن هذه المبادىء .

ومن هـذه الأصول أن تقوم المعاملة بين الإخوان على التدوين والتسجيل . وقد قال القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » الآية .

ولا تمنع الصداقة كتابة مثل هذه الديون ، فإن فجاءات الزمان ليس لها حسبان .

وعلى الأخ المقترض أن يبادر هو بالتدوين والتوقيع وتقديم السجل (الإيصال) إلى أخيه ، فيحقق بذلك السنة ، ويجرى على الحدود ، ويكون فى هذا التصرف الدقيق مانع من الظن فلا يقتحم قلب صاحبه ... وعلى الأخ المقرض أن يقبل التسجيل فى ذلك نظام وأمان وتلك حكمة القرآن وليكن هذا المبدأ هو طريقة المعاملة بين المرء وزوجه ، فإذا اقترض منها فليسجل لها قبل أن تسأله ، وإذا ابتاع لها فليشهد أنها صاحبته ، ولا يتوانى حتى تطلب إليه ذلك ، فتولد فى نفسه غضاضة . وغنى عن البيان أن على الزوجة أن تعامل زوجها بمثل هذا النهج الإسلامى الحكيم فتسجل له ما تأخذه لنفسها أو لذويها .

ومع هذا كله فليكن هناك دائما عامل التسامح . التسامح . التسامح حتى لاتتحول النفوس إلى آلات حاسبة تحصى النقير والقطمير . وإنه من انعدام الذوق أن نشاهد بعض الأسر يتحاسب أفرادها على التافه والحقير . وكأن الأخوة قد صارت إدارة عامة تطالب ببيان دقيق عن إنفاق القليل والكثير ، والصغير والكبير .

يجب أن تكون هناك حدود ، ولكنها حدود لاسدود .

يجب أن تكون هناك قواعد ولكنها قواعد لا قيود .

وإذا عدنا إلى الحكمة : « تحابوا كإخوة وتعاملوا كأجانب » نجدها وسيلة لجفاف المودة بين الإخوان ، وللتبجح والقحة بين الأحباء . ولكن واجبنا أن نقول : « تحابوا كإخوة وتعاملوا فى سماح » والإسلام يأمرنا بالسماح دائما : « رحم الله عبدا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى » . فالسماح بين الإخوة أشد وألزم .

وليس من السماح والكرم أن تترك أخاك محتاجا وأنت

ذو غنى . وليس من الشهامة أن تحس بضائقته ولا تفرجها ، وليس من المروءة أن تنتظر عليه حتى يذيب حياءه خجلا فى مد يده إليك . وليس من الأخوة أن يكون مريضا ولا تكن له بمالك وأسبابك كلها .

وفى هذا المجال يجب أن نتعامل !

الحق الثانى :

المعاونة بالنفس

فتكون له بنفسك كما تكون له بمالك فى قضاء حاجاته وتسخر له بعض جهدك ووقتك ، وتبذل فى ذلك راحتك . وللمعاونة بالنفس درجات ، وأدناها القيام بحاجة الأخ عند السؤال ومع القدرة مظهراً البشاشة والفرح بالقيام بخدمته ، وتكليفه لك . وقد قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى ، فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية : « والموتى يبعثهم الله » .

وليكن قيامك بحاجة إخوانك احتسابا لوجه الله ، ووفاء بحقوق الإخاء ، وقياما بالواجب لا انتظاراً لشكر ، أو أملا فى رد المعروف . قضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاءه بهدية . فقال . ما هذا ؟ قال : لما أسديته إلي . فقال : « خذ مالك عافاك الله . إذا سألت أخاك حاجة

فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة ، وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى » .

بل إن الصفوة من القوم يرون أن القيام بحاجة الناس سواء أكانوا إخوانا أو أعداء مما تستلزمه الحكمة وقوة الشخصية . ومن هؤلاء جعفر بن محمد : « إنى لأسارع إلى قضاء حوائج أعدائى مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى » . وفى هذا التصرف الحكيم تثبيت لمكانة المرء ومنزلته بين الجماعة ، وإشعار لها بالعزة والكرامة والسيادة .

وكان الرجل من السلف الصالح يتردد على باب أخيه ويسأل : هل لكم زيت ؟ هل عندكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ ثم يقوم بقضائها من غير أن يعلم أخوه بما فعل .

وإذا كان الإخوان هم عدة الزمن وسلاح الأيام فإذا لم ينفعوا فلا خير فيهم ، ولا فائدة منهم . وإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع ، ويقول ميمون بن مهران : « من لم تنتفع بصداقته ، لم تضرك عداوته » . وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ألا وإن لله أوانى فى أرضه وهى القلوب ، فأحب الأوانى

إلى الله أصفاها وأصلبها وأرقها : أصفاها من الذنوب ، وأصلبها فى الدين ، وأرقها على الإخوان » .

(٢)

ويجب على الأخ أن يتذكر أن حاجة أخيه لا تقل فى الأهمية عن حاجته . ومن نبل الإخاء أن تقوم بحاجته دون أن ينتظر منك ذلك ، ودون أن يدرى أنك قمت بها . ثم لا ترى لنفسك حقا عليه بسبب ما قدمته ، ولا تسمح لنفسك بأن تعد ذلك من أفضالك عليه ، بل يجب أن تشعر بحقه عليك لقبوله سعيك وقيامك بأمره . ويقول الغزالى :

« ولا ينبغى أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد فى البداية بالإكرام فى الزيادة والإيثار ، والتقديم على الأقارب والولد » . ولا تحسبن أن تقديم مصالح الإخوان على مصالح النفس والأقارب والولد جد غريب ، بل إننا لنشاهد فى هذه الأيام التى انصرف الناس فيها إلى ما يعنيهم فحسب بعضَ الكرام يشغلون أنفسهم بالقيام بحقوق المعارف والإخوان ، وينسون مشاغلهم الخاصة .

ولقد فضل بعض الأتقياء والصالحين الإخوان على

الأبناء تفضيلا حقيقياً ، وعللوا هذا التفضيل بأن الأبناء يربطوننا إلى الدنيا ، ويعودوننا على الحرص والجبن ؛ وفى الحديث : « الولد مجبنة مبخلة » . بينما الإخوان يذكروننا بالآخرة ويعودوننا على البذل والإيثار والتضحية ، ويربطوننا إلى المعانى الكريمة والمحامد الأصيلة .

ومن حق الأخ أن تسأل عنه إذا غاب ، وأن تتفقده إذا تمهل . وقد قال عطاء : « تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، أو مشاغيل فأعينوهم ، أو كانوا نسوا فذكروهم » . وما أظن عطاء — رضى الله عنه — قصد تحديد الزمن تحديداً تاماً فى جميع الظروف والأوقات . بل إن هنا الزمن قد يقصر كثيراً إذا كان الأخ جاراً أو زميلا ، وقد يطول عندما تفرق بين الأخوين عوامل الزمان والمكان . وروى أن ابن عمر كان بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجعل يلتفت يميناً وشمالا فسأله عن ذلك ، فقال : أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه . فقال له : إذا أحببت رجلا فسله عن اسمه ، واسم أبيه ، وعن منزله . فإن كان مريضاً عدته ، وإن كان مشغولا أعنته » .

وهذا هو سر التعارف المشروع فى دعوتنا عند التلاقى . فعلى الإخوة أن يسأل كل منهم أخاه — عند الجهل — عن اسمه واسم أبيه وعن محل إقامته . . وفى هذا الحديث سر الاجتماع الأسبوعى الدورى الذى نتناوبه فى منزل كل فرد من أفراد الأسرة ، لتقوم المجموعة بمعرفة منازل الأفراد فيتم التعرف بالعضو وبالبيئة ، وبالإنسان والمكان ، حتى تكون الجماعة للفرد بمنزلة العشيرة عند ما تدعو إلى ذلك الضرورة .

وقد رأيتنا ونحن بين إخوان المنصورة الحبيبة على أيامها وإخواننا بها السلام ، وقد ألمت بأخ لنا نازلة من المرض ، كيف اجتمع الإخوان وأرسلوا من يزوره فى مستشفاه البعيد نيابة عنهم ، وكيف اكتتبوا فيما بينهم على مديد المساعدة إليه ، وكيف تلاقوا مع أسرته فواسوها وهونوا الأمر عليها . وكأنه لم يغب عنها ، ورأى والده الشيخ فيهم صورة ابنه الغائب .

(٣)

والبيوت يا أخى مواضع للفتنة وللاختبار ، ولكن إذا خلصت النيات وحسن التهذيب بالتزام الإخوان تعاليم

القرآن واجتنابها فى غيبة أربابها ، ومن غض الطرف عند دخولها . ومن عدم التردد عليها إلا لداع يدعو إليها : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا . هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . . . . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . » .

ولا يقتصر غض البصر على التطلع إلى عورات النساء ، بل يدخل فى ذلك التطلع إلى العيوب . وكثير من الناس يدخل البيت ولا هم له إلا مراقبة ما به ، والحكم على ما فيه ، وتقويم أثاثه ، والتفتيش عن عيوبه . كأنه موكل بصلاح الخلق ، وتقدير قيم الناس . وقد لا يكتفى بذلك بل يتطاول بلسانه فيقترح وضع كذا فى غير موضعه ، أو شراء كذا لأنه أفضل ، أو التخلص من كذا لأن ما عنده خير منه ، وفى ذلك جرح لأحاسيس الإخوان مهما بلغت المودة

ومقياس المعاملة فى هذا الميدان ألا نلغى بيننا — نحن الإخوة — الحدود أو الرسوم ، بل نلتزمها ، ولا يسوغ لنا

الود أن ندخل البيوت فى غيبة إخواننا ، ولا نسلك مع أهليهم غير سبيل الدين وبالغ الحشمة ، حتى ولو رفعوا هم فيما بيننا الكلفة .

وإذا ما التزمت هذه الآداب أصبحت منازل الإخوان محاريب تذيب الذنوب ، وملائكة الرحمن تطوف من حولها : « ما زار رجل أخاه فى الله شوقا إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه : طبت وطابت لك الجنة » .

ومن تمام الأخوة ألا تخص نفسك بشىء سار دون أخيك ، كما لا تختص به دون ولدك . فلابد من دعوته فى المأدبة ، والتماسه فى الوليمة ، وتفقده فى العرس ، وتستشعر حسك أن المسرة لا تتم إلا بحضوره . وأن الأنس لا يكتمل إلا بوجوده ، وقد لخص القرآن الحكيم علاقة الأخوة فى كلمة موجزة : « رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

الحق الثالث :

واجب اللسان

والواجب الثالث للأخ هو حقه على لسانك . وقد أصبحت الأخوة فى الأيام الحاضرة وقد توافرت للإنسانية كثير من وسائل الأمن والضمان ، والدعة والاستكفاء ، تكاد تكون مقصورة على علاقة القلوب التى يترجم عنها البيان ، ويقوم بها اللسان . ولهذا كان الحديث عن هذا الواجب ذا شعب ومسالك شتى . وحسبك أن تعلم أن للأخ عليك فى لسانك حقين ، أحدهما سلبى . والآخر إيجابى :

١ — فالسلبى يكون بالصمت عن القدح فى أحبابه وأهله وولده ، وبالسكوت عن حكاية أقوال الناس فيه ! . فإن الذى سبك مبلغك . وما يصيب المرء من جراء الذم الذى يقدمه الناس له غير ثورة الأعصاب فإذا كان بينه وبينه حجاب لم يتعرض لنتيجته ، حتى إذا بُلغ إليه وقع المحظور.

وبالجملة فليسكت الصديق عن كل كلام يكرهه أخوه جملة أو تفصيلا ، تعريضا أو تصريحا ، إلا إذا دعا إلى ذلك داع

دينى من نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن المنكر ولم يجد رخصة فى السكوت ، فحينئذ يصبح من حقه أن تتكلم لتدعوه إلى الخير ، فإن ذلك إحسان إليه . وذكر مساوئ الصديق لا يخرج عن الغيبة وقد حرمت فى حق كل مسلم ، فهى فى حق إخوانك جريمة دينية وخلقية . ويزجرك عنها أن تطالع أحوال نفسك وعليها تقيس النفوس الأخرى .

واعلم أنك لو طلبت منزها عن العيوب لاعتزلت الناس كافة ، وما من أحد إلا وله محاسنه ومساويه . والكريم هو الذى يلتمس المعاذير . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « استعيذوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيرا ستره ، وإن رأى شرا أظهره » .

ويرى الصوفية أن الفتوة ليست فى قوة السواعد والعدوان بها على الإنداد ، وإنما هى كما قال الفضيل : « الفتوة العفو عن زلات الإخوان » ويفصل الشافعى رضى الله عنه طبائع النفوس : « ما من أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ، ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل » .

ومن حق الصديق السكوت عن أحواله ، فلا يسأله إذا رآه فى طريق أو فى موضع ما — ولم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره أو مورده — فقد لا يحب أن يعلم أحد شيئا عما هو فى سبيله فيثقل على نفسه الصدق ، فإن لم يصدق اضطر إلى الكذب . وفى الحالتين تكون قد حملته على مركب صعب لا يهواه . وإذا لجأ إلى عدم الرد مطلقا ثقل على نفسك منه وربما بدالك أن هذا لون من عدم الوفاء !

٢ — وكما يجب عليك السكوت بلسانك يجب الصمت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن . وسوء الظن غيبة صامتة وإن شئت فقل غيبة قلبية . والنفس المؤمنة تفسر ما تراه التفسير الجميل ، أما غيرها فلا ترى فى الفعل الجميل إلا كل قبح . فواجبك أيها الأخ المسلم أن لا تحمل فعل أخيك على وجه فاسد ما أمكنك حمله على وجه حسن وعليك أن تحمل ما تراه من خطأ على السهو أو النسيان أو الجهل . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » . ولا يقف سوء الظن عند مداه ، بل يدعو إلى التجسس وإلى التحسس ، وكلاهما مما نهى عنه

الشرع : « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » :

فستر العيوب والتجاهل والتغافل والحمل على الوجه الحسن شيمة أهل الفهم والبصر . ويكفيك أن الله سبحانه وتعالى وله عليك حق الولاية المطلقة والقدرة المسيطرة ، وله حق العبودية الذليلة ، يعاملك هذه المعاملة ، ويستر عن الأنظار ما أخفت الأطهار . والصوفية لا يدعون الله إلا بقولهم : « يامن أظهر الجميل . . وستر القبيح » . فتعال معى أيها الأخ نبسط أيدينا معهم ونقل فى ضراعة : « يامن أظهر الجميل . وستر القبيح » ثم نعامل سوانا بهذا المبدأ رجاء أن يهبه الله لنا ، وقد حققناه لغيرنا . إنه ستار العيوب ، وغفار الذنوب

وما أعجبت بشىء فى والدى — رحمه الله — إلا بصمته عن عيوب الناس وستره على العصاة . ولقد سرى فى نفسى بعض هذه الصفة حتى إننى رأيت مرة إحدى السيدات تسرق بيتنا فتغافلت عنها ، حتى أدع لها فرصة للفرار ، دون أن أعرضها لمذلة الخطيئة . وما أعجب ما يخاطب به سيدنا عيسى (عليه السلام) حواريه حين يقول لهم : « كيف تصنعون

إذا رأيتم أخاكم نائما ، وقد كشف الريح ثوبه عنه . قالوا : نستره ونغطيه . قال : بل تكشفون عورته .

قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ ! فقال : « حدكم يسمع بالكلمة فى حق أخيه فيزيد عليها ، ويشيعها بأعظم منها » . وبهذا تصير الحبة قبة ، والبعرة بعيراً . وقلما تجد رجلا يحسن نقل ما يرى بدقة وأمانة ، والصحافة تقوم على استغلال نظرية الحبة خير استغلال . واللبيب من نفى الزوائد ، وقنع بالحقائق . والويل للمطففين . . .

ومنشأ التقصير فى ستر العورة ، والرغبة فى كشفها الداء الدفين فى الباطن وهو الحقد والحسد . فإن الحقود الحسود يمتلىء قلبه بالضغن والغيظ ثم يظل مستوراً فيه إلى أن يجد متنفساً له فينفث سمومه وعقاربه . وواجب الأخ أن تكون عيونه رمداء لا تبصر عيوب إخوانه .

٣ — ومن أدب الإخوان الصمت عن أسرار الأخ التى استودعك . ويجب إنكارها إذا سئل عنها حتى ولو صار بذلك إلى الكذب ، وليس الصدق واجباً فى كل الأحوال . وكما أن المرء يخفى عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج

فى ذلك إلى الكذب ، فليفعل ذلك من أجل إخوانه فإن أخاه منزل منزلة نفسه ، وقد سئل بعضهم : كيف تحفظ السر ؟ قال : « أجحد المخبر وأحلف المستخبر » .

وقد حبب للطبيعة البشرية أن تفضى بمكنون أسرارها إلى أصدقائها وخلصائها :

لعب الهوى بمعالمى ورسومى
ودفنت حيا تحت ردم همومى
وشكوت همى حين ضقت ومن شكا
هما يضيق به فضاء ملوم

بل إن الحكماء يرون فى حجب الأسرار عن الأصدقاء عقوقاً : « مكاتمة الأدنين صريح العقوق » .

ولابد من شكوى إلى ذى حفيظة
إذا جعلت أسرار نفس تطلع

وعندما تضيق النفس بالهم والأحزان تجد سلواها فى بث أشجانها إلى من يواسيها . .

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة
ولكن تفيض النفس عند امتلائها[1]

---

(١) ص ١٨٥ العقد الفريد ج ٢

ولمجالس الأخوة قدرة عجيبة على حل عقد الأسرار . وكم من حذر ظل يطوى سره بين جنباته طويلا ، حتى إذا صفا المجلس تحطمت القيود وبدت الخفايا ، ومن حق هذه المجالس أن تطوى على ما جرى فيها ، وقد جعل الدين مجالس الإخوان أمانة : « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره » . فحذار أيها الأخ من الخيانة !

وقد كان السابقون مثلا فى حفظ السر ، وقد قيل لبعض الأدباء : « كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قبره » وقيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وجعل إفشاء السر عنوان الحمق : « إن قلب الأحمق فى فيه ، ولسان العاقل فى قلبه »

وما السر فى صدرى كشاو بقبره
لأنى أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساه حتى كأننى
بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه
عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وكانوا يعرفون قوة الخلق من قدرة الرجل على تحكمه فى أعصابه عند الغضب فلا يبوح بسر . يقول أبو سعيد الثورى: « إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك ، وعن أسرارك : فإن قال خيراً ، وكتم سرك فاصحبه . وقيل لأبى يزيد : « من نصحب من الناس ؟ قال من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك ما يستره الله » ، وهذه المقاييس مقاييس خلقية دقيقة . فالكريم لا يخرجه الغضب عن طبعه ، أما اللئيم فسرعان ما يبادر بإظهار ما يعلم عند القطيعة :

وترى الكريم إذا ما تصرم وصله
يخفى القبيح ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضى وصله
يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وإنك لتجلس إلى محدثك فإذا بك تستشف من حديثه قوة خلقه ، أو ضعف إيمانه ، فإن اللسان ينم عن طبع صاحبه وكم من مهاجم لإخوانه الغائبين ، وهو لا يدرى أنه يهاجم نفسه عند السامعين .

٤ — ومن أسوأ ما يفسد الصحبة الجدل والمماراة . وقد أصبح الجدل نهج هذا العصر باسم حرية الرأى ودعوى النقاش للوصول إلى الحقيقة . والحق أن للأخ أن يناقش أخاه الرأى فى رقة لا تصل إلى المدافعة ، وفى أدب لا يصل إلى العناد . ولكن أين من يفعل ذلك ؟ أين من يناقش وهمه الوصول إلى حقيقة ؟ إن كل من يناقش آخر يضع فى رأسه الأساس الذى سيصل إليه من النقاش : وهو الانتصار لرأيه أو لعقيدته أو لمذهبه السياسى أو لفكرته المعينة . وهو فى سبيل ذلك يرتكب شططا من القول ، وتعسفا فى الحقيقة ليكسب الغلب والانتصار .

أما أدب الإسلام فهو ترك المماراة سواء أكنت محقاً أو مبطلا . وحتى ولو كان الحوار يدور حول العقيدة . وقد رأيت من تجاربى أننا لا نكسب القلوب بالحجج بقدر ما نكسبها بالقدوة واللطف وقوة التأثير . ولهذا حدثوا أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال : « من ترك المراء وهو مبطل بُنى له بيت فى ربض الجنة . ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلا الجنة » . ويلاحظ من الحديث

أن ثواب من يترك المراء وهو محق أعلى وأعظم ، لأن تركه وهو محق أثقل على النفس وأشق . ولعل فى الحديث من المعانى فوق ذلك . فقد طلب الرسول ترك المراء فى الحالتين ، حتى ينزع من النفوس الوهم الخاطىء حين تتمارى وتتجادل باسم الدفاع عن الحق . وما يمارى أحد أخاه ، إلا وكل منهما يعتقد أنه المحق !

ويقول زكى مبارك فى كتابه التصوف الإسلامى :

« وأكاد أحكم أن حملة الأقلام فى عصرنا هذا قل أن يبقى لهم صديق ، فباسم حرية الرأى ، وحرية النقد ، وحرية النشر ، وحرية القول تقع كلمات وعبارات تأتى على المودة من الأساس ... وقد يقال إن أناساً تصاولوا فى ميادين الأدب والسياسة ثم ظلوا أصدقاء وهذا صحيح ، ولكن من يضمن سلامة القلوب من الندوب التى يورثها الجدل العنيف . هؤلاء لم يظلوا أصدقاء على ما كانوا فى سالف العهد ، ولكنهم يتجملون فيخفون العيب ويظهرون الوداد »[1] .

وفى كتاب الإصابة : دخل السائب بن صيفى على النبى

---

(١) التصوف الإسلامى ص ٢٢٣ ح ٢ .

صلى الله عليه وسلم فقال : أتعرفنى يا رسول الله ؟ قال : وكيف لا أعرف شريكى فى الجاهلية الذى كان لا يُشارى ولا يمارى ؟ وقال ابن المقفع : المشاراة والمماراة يُفسدان الصداقة القديمة ، ويَحُلاَّن العقدة الوثيقة ، وأيسر مافيهما أنهما دربة على المنافسة والمغالبة :

فإياك إياك المِـــراء فإنه
إلى السب دَعَّاءٌ وللصرم جالب

وقال ابن أبى ليلى : لا تمار أخاك ، فإما أن تغضبه وإما أن تكذبه . . وإذا بحثنا عن الدواعى التى تدعو الناس إلى الجدال والمماراة لوجدناه نوعا من حب الاستعلاء وإظهار التميُّز بمزيد العقل والفهم والتبصر ، وإظهار الخصم بمظهر الجهل وفساد الرأى . ولهذا انتهى السلف فى الحذر من المماراة إلى حد لم يروا السؤال أصلا . ومن أعجب ما قالوا فى ذلك : إذا قال لك صاحبك : هيا . فقلت : إلى أين ؟ فلست بصديق. وقالوا : ينبغى لك أن تقوم معه ولا تسأله إلى أين . . . وهذا والله هى موافقة الإخوان !

٥ — وحق الإخوان على لسانك إيجاباً .
التودد إليهم بعذب الكلام وطيب القول .

فتظهر له مشاركته فى السرور ، والتوجع فى المصيبة ، وأن تعبر له عن مكنون حبك بالبيان ولا تقتصر على ما يطويه الجنان . فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » . وإنما أمره بالإخبار لأن ذلك يتولد عنه زيادة الحب ، إذ كلما عرف أنك تحبه أحبك فيقوى حبك بحبه لك ، وهكذا تنمو المودة .

وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه فى غيبته وحضوره . وقد قال عمر رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود صاحبك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

ومما يجب عليك أيضاً نحو أخيك تفقدك له بالسؤال عنه ، وإظهار شغل القلب بسبب غيابه ، وإظهار الحزن باستبطاء العافية عنه ، وإظهار الضيق بكل ما يعرض له مما يؤلم ، وإظهار السرور بكل ما يناله من خير .

ومن ذلك أيضاً أن تثنى عليه بما هو أهله ، وبما تعرف

عنه من محاسن أحواله . والطبيعة البشرية مجبولة على حب الثناء . وعليك بالثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله وخلقه وهيئته ومظهره وجميع ما يفرح به من ذلك — عند من يُعجب بالثناء — ومن غير كذب أو إفراط ، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه . وعين الرضا ترى المحاسن ، وتغض عن المساوئ .

« إن الثناء على الأعمال الصغرى يحرك فى المرء الرغبة فى القيام بأحسن ما يستطيع عن طيب خاطر ، ورضا فى الناس » .

ولكن ما هى الأمور التى يجب أن نمتدحها فى الناس ؟ علينا أن نمتدح أى شىء يقع تحت ملاحظتنا فإذا نجح رفيق لك فى أن يعقد رباط عنقه عقدة ناعمة دقيقة — وهو لعمرى عمل من الصعوبة بمكان — فقل له : إنه أجاد عقدها ...

« قد تقول : إنه من الصعب أن تجد فى الناس أموراً تستحق المديح ، وأنا أقول : إنك أعمى ، أو إنك إنسان غبى مفتون بنفسه ! . . » .

« وللثناء أهميته العظمى إذا صدر عن الرئيس أو عن إنسان شديد القرابة .

ولكن العجيب أن هؤلاء الناس ، هم أشد الناس إهمالا له وتغاضياً عنه . . . إن من السهل على المرء أن يذم وأن يقدح ولكن القوة والفعالية هى فى أن يتغاضى وأن يتسامح وأن يمدح[1] » .

ومثل ثنائك عليه أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح والموافقة . فإن إخفاء ذلك حسد وعداوة[2] .

٦ — ويجب أن تشكره على صنيعه فى حقك ، ولو على نية المعروف الذى هم بفعله ولم يتم . قال على رضى الله عنه : « من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة » . ومن لم يشكر الناس لم يحسن شكر الله . ويفهم كثير من الأغبياء أن الأخوة تستلزم تداعى المعانى الخلقية فلا ينهض لشكر أخيه ، كما لا ينهض الوالد لشكر ابنه ، لأن كلا منهما يرى ذلك من حقه . وليس هذا من نبل الشيم ،

---

(١) ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ من كتاب فن معاملة الناس .

(٢) الإحياء ص ١٤٥ ج ٢ .

بل على الأخ أن يشكر أخاه ، وعلى الوالد أن يشكر ابنه ، فإن الشكر يغسل القلوب من رواسب المنة .

٧ — وأولى من شكر الصديق الدفاع عنه باللسان فى غيبته ، مهما قصد بسوء ، أو تعرض لعرضه متهجم بتعريض أو تصريح . فحق الأخوة الانتصار لها بالسنان وباللسان ، والتشمير فى الحماية والرعاية ، وتبكيت المتطاول ، وتغليظ الخطاب معه . وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه بالغيب رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

والعرض لا يقل أهمية عند المرء عن الجسم ، فإذا تركت صاحبك تنوشه الألسنة فكأنك تركته للسباع تنهش لحمه . وقد شبه القرآن المتطاول على عرض أخيه بمن يأكل لحم أخيه ميتاً : « ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » ؟ !

فإذا ذكر أخوك أمامك وهو غائب ، فتصور أنه هو الحاضر وأنك الغائب ، ثم تحدث بما تحب أن يتحدث به عنك وأنت غائب . وقال مجاهد : « لا تذكر أخاك فى غيبته إلا بما يحب أن يذكرك فى غيبتك » . واختلاف نفسية الأخ نحو

أخيه تبعا للحضور وللغياب رياء ممقوت فتصور دائما أنه موجود معك . أو من خلف حجاب . وأنه مستمع لما أنت قائل فيه . قال بعضهم : « ما ذكر أخ لى بغيب إلا تصورت نفسى فى صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فى » . وإخلاص الود هو أن يستوى الأمر بينك وبين أخيك سواء فى الغيب وفى الشهود ، وفى السر والعلانية .

٨ — ومن الحقوق المفروضة للأخ على الانسان التعليم والنصيحة فى الدين والدنيا . وذلك بأن ترشده إلى مكارم الأخلاق . فإن علمته ولم يتعلم فعليك بالنصيحة ، بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه . وتنبهه إلى عيوبه فى صدق وأمانة . وقد علمت أن الصديق مرآة أخيه ، ومرآة الحسناء تصدقها التصوير من غير تزيد أو نقص .

والنصيحة فن وذوق ومهما كانت الكلفة مرفوعة بين الأخوين ومهما كان الود وثيقا فلا يدعو ذلك إلى المجابهة بالعيب أو الجفاء فى القول . فإن الحديث عن العيوب ثقيل على كل نفس تنفر منه الطبيعة لما جبلت عليه من التطلع إلى الكمال . وكثيراً ما يثقل نصح الأم على وحيدها ، وتوجيه الوالد على ابنه . وإذا لم يحسن كل منهما التأتى لذلك فى أناة ورفق

تحول النصح إلى عناد ثم إلى تبجح ثم إلى فساد .

وأول آداب النصيحة أن تكون بينك وبينه ، « فما كان فى الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة » . وقال الشافعى رضى عنه : « من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » . وقد ضرب الله لنا المثل الأعلى فى ذلك ، فهو يعاتب أحباءه يوم القيامة بينه وبينهم . أما أعداؤه فيشهر بهم على ملأ من الناس ، وتنطق جوارحهم بما كسبت ، وتشهد عما فعلت . نعوذ بالله من الخزى يوم العرض على الديان .

ومن آداب النصيحة أن تميز بين ما يمكن فيه النصح ، وما لا فائدة من الحديث عنه . وعيوب المرء إما تكون عيوباً خلقية جسمانية لا حيلة للمرء فى تقويمها كالقباءة والمرض والضعف ، أو تكون عيوباً نفسية قد علمها المرء وأحسها من نفسه ، ولكنه لا يستطيع التخلص منها لضعف الهمة ووهن العزيمة . فليس هناك فائدة من الحديث عنها فى الأولى ، لأنه لا يستطيع أن يخلق نفسه ، وكل امرئ يتمنى أن يكون خلقه فى أحسن صورة . كما أنه لا فائدة من الحديث فى الثانية . لأنه يعلمها ، ولكنه غير قادر على مغالبة الطبع ، والتحكم فى الجبلة ،

فتذكيرك له بها تذكيرٌ له بالصراع النفسى الذى يقوم بينه وبين نفسه من أجلها ، فتسبب له الضيق والهم من غير وصول إلى نتيجة ، فترك الحديث عن هذا الصنف من العيوب أليق بالصديق وأسلم . ولا يدعو التبسط وترك الكلفة إلى السخرية والهزء منه ، وإلى التنابذ بالألقاب ، والتنادى بأسماء المعرات والإهانات .

والصنف الثانى من العيوب وهى ما كانت خلقية وليدة التعود ، أو العلم الخاطىء ، أو الفهم المنحرف . وهذه يسهل علاجها بالتنبيه والإرشاد ، والتذكير والهداية . ومن واجبك أن تدعوه لعلاجها ، وتحثه على ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة . وعليه أن يتقبل ذلك بقبول حسن . وكان عمر يقول : «رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه» . ولا تأخذه العزة بالإثم ، فيتحقق فيه قول الله تعالى عن الكافرين : «ولكن لا تحبون الناصحين» .

ومن أدب النصيحة للإخوان أن تلجأ إلى التعريض دون التصريح ، وإذا أمكن المكاتبة دون المشافهة كان أدعى لذهاب ما يحسه المرء من ضيق المواجهة بالنصيحة . وقد قلت فى أول

الحديث إن النصيحة فن وذوق ، وهنا يظهر الذوق الكريم والفن الدقيق فى الوصول إلى الغرض دون المساس بإحساس أخيك . والكريم البصير هو الذى يعطيك وكأنه يأخذ منك ! !

٩ — ويجب أن تتذكر دائماً أيها الأخ أن هناك مشاكل خاصة لكل فرد ، لا يحب أن يطلع عليها أحد مهما كان ولا يستسيغ الحديث عنها بطريق كالأمور التى تتعلق بأحوال الأسر ، وأحوال العلاقات القلبية ، وأحوال وسائل العيش ، وليس من حق الصديق أن يحشر أنفه فيها إلا إذا بدأه أخوه بالحديث عنها . والدخول فى التفاصيل الخاصة بالإخوان مشرب تأباه الشرائع والأذواق !

يقول الدكتور دونالدليارد فى كتابه (فن معاملة الناس) ص ٣٤ :

« إن الشخص الذى ينتقد عند ما يرى ضرورة للانتقاد والذى ينتقد بالطريقة الصحيحة هو فى الحق نادر الوجود . إنه السائس الحقيقى » .

ويقول عن ضابط طيار كان قد تدرب على الطيران

وبعد أن طار مدربه معه مرتين أو ثلاثاً أراد أن يمتحنه ، فطلب إليه أن يقود الطائرة بمفرده ، وتمكن الشاب بعد جهد أن يرتفع بالطائرة فى الجو . ولكن أعصابه خانته فظلت الطائرة تتراقص وتنقلب ذات اليمين وذات الشمال . فقال الطيار فى نفسه : إننى لابد مطرود فلأحاول الوصول إلى الأرض بأية كيفية .

وبلغ الأرض بعد أن اصطدم بها وقفزت الطائرة فى الهواء خمسة عشر قدماً . وما كاد يخرج من الطائرة حتى هرع إليه مدربه قائلا له : مرحى لك يا بنى ! ها قد نجحت فى النزول ، وها هى طائرتك قطعة واحدة ، إن فيك جميع مؤهلات الطيار !

لقد ارتكب الشاب فى طيرانه عدة أخطاء ، ولكن المدرب الحكيم لم يشأ أن يصدر عنه غير المديح والثناء بادئ الرأى . ويرى أن الناقد يجب أن يبدأ نقده :

١ — على انفراد . ٢ — بابتسامة .

٣ — مبتدئا بالثناء . ٤ — مثيراً الشوق فى نفس المنقود .

٥ — بالتربيت على الظهر .

تناسى الهفوات

واللبيب من ينظر إلى طبائع الأشياء ثم يكون حكمه وتصرفه وفاق هذه الطبائع . فإنه يريح ويستريح . والإنسان مجبول على الخطيئة منذ سنها آدم الأب الأول حين عصى الله وأكل من الشجرة ، وقال له الله ولزوجه : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »

كما أن الله أراد التفرد لذاته بالكمال ، ولم يشاركه فى صفاته أحد ، ولهذا لا تبحث عن الكمال فى إخوانك ، وإذا رمت عدم النقص فقد رمت المحال .

وإذا أدركت هذه الحقائق سهل عليك أن تعيش وأن يُعاش معك ، وطاب لك أن تُؤاخى وأن تؤاخى.

وقد قالت الحكماء : « مما يجب للصديق على الصديق ، الإغضاء عن زلاته ، والتجاوز عن سيئاته ، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبته بلا إكثار ، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة » .

وحسبك من أخيك بعضه . فإنك إن طلبت منه ما تبتغى فلن تصل إلى ود . وقد قيل : « من لك بأخيك كله » وقالوا :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

وقد قسم الإمام الغزالى خطأ الأخوان إلى نوعين :

أحدهما ما كان الخطأ بارتكاب معصية فى حق الله سبحانه وتعالى .

والثانى ما كان تقصيراً فى حق الأخوة .

وهو يرى أن ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية أو الإصرار عليها فعلى الأخ التلطف مع أخيه فى نصحه — مراعياً آداب النصيحة التى أشرنا إليها فيما سبق — حتى يعود إلى رشده ، ويقلع عن غيه ، ويرجع إلى سابق العهد منه فإن لم تقدر وبقى مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى الإبقاء على مودته ، أو قطع أخوته .

فمذهب أبى ذر — رضى الله عنه — وجوب الانقطاع عنه ، وقد قال : « إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته » . وهو بذلك يشير إلى أساس العلاقة التى

تقوم بين الأخوان ، وهى علاقة الصلاح والمحبة فى الله فإذا فقد ذلك فقد فقدت الأخوة ووجب قطعها .

ومذهب أبى الدرداء — رضى الله عنه — ألا يبادر المرء بفصم عرى مودة الشاردين من أخوانه ، بل عليه أن يدرك أن الأخوة لا يعلم فضلها إلا عند الحاجة ، وأن الأخ الضال فى حاجة إلى من يأخذ بيده ، ويقوده إلى الرشاد . وقد حكى عن أخوين من الصالحين انقلب أحدهما عن الاستقامة ، فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره . فقال « أحوج ما كان لى فى هذا الوقت ، لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده ، وأتلطف له فى المعاتبة ، وأدعو له بالعودة على ما كان عليه » .

وروى أن أخوين عابدين كانا فى جبل نزل أحدهما ليشترى من المصر لحما بدرهم ، فرأى بغيا عند اللحام فرمقها وعشقها ، واجتذبها إلى خلوة ، وواقعها . ثم أقام عندها ثلاثا واستحى أن يرجع إلى أخيه حياء من جنايته . فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل إلى المدينة ، فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه ، وجعل يقبله ويلتزمه . وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه .

فقال له أخوه : قم يا أخى ، فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنت قط أحب إلى وأعز من ساعتك هذه . فلما رأى أخوه المخطىء أن ذلك لم يسقطه من عينه ، قام وانصرف معه .

وهذه القصة التصويرية تبين لنا الطريقة التربوية الناجحة فمد الأيدى للعاثرين لنستنهضهم ، ونأخذ بأيديهم يحيى فى نفوسهم الأمل من جديد ، ويمدهم بقوة لمعاودة الثبات على الطريق . أما نظرات السخرية والاحتقار فتأتى على بقايا الخير فى قلوبهم ، ويفضلون التمادى فى سقوطهم .

ويعلل أبو الدرداء مذهبه بقوله : « إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه ، فلا تدعه لأجل ذلك . فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى » . وإلى هـذا التعليل ذهب إبراهيم النخعى حيث يقول : لا تقطع أخاك ، ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يرتكبه اليوم ، ويتركه غدا .

ويذهب إلى رأى أبى الدرداء الغزالى أيضا ، ويصف مذهب أبى ذر بأنه أسلم وأحسن ، أما الآخر فهو ألطف وأفقه . ثم يقول :

« فإن قلت : ولم قلت هذه ألطف وأفقه ، ومقارف

هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . فأقول أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة ، لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة . . وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد يُنزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء ، بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص » .

والإبقاء على المودات ، وعدم المبادرة إلى فصمها هو نهج الكرام ، وخطة الشمائل الأصيلة . ويشهد لهذا النهج ما دعا إليه الشرع الحكيم من الإبقاء على أواصر الأسرة وأخذ العلاقة بين الزوجين بالرفق والعفو والتسامح ، « وعدم المبادرة بقطعها لمجرد انحراف أحد الطرفين عن السبيل القويم » .

ثم يستطرد الغزالى إلى توجيه جدير بالتأمل حيث يرى أن مداومة الإخاء تربية للعصاة بطريق المحاكاة والتقليد ، فيقول : « والفاجر إذا صحب تقياً ، وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل ، فيحرص حياء منه ، قال جعفر بن سليمان : مهما فترت فى العمل ، نظرت إلى محمد ابن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاطى فى العبادة وفارقنى الكسل . وعملت عليه أسبوعاً » .

ولكن الأخوةَ تقتضى الرضا عن الصديق ، والرضا عنه يستدعى الرضا بأفعاله . فهل تبقى العلاقة كما هى ؟ يجيب عن ذلك أبو الدرداء رضى الله عنه لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : « إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخى ، وإخوة الدين أوكد من إخوة القرابة » . ويوضح هذا التحديد ما خاطب به الله تعالى نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى حق قرابته : « فإن عصوك ، فقل : إنى برىء مما تعملون » . ولم يأمره بالبراءة منهم . فليكن الحال بين الإخوان كما هو الحال بين الأقرباء .

(٢)

وفى ستر زلات الإخوان مناهضة للشيطان الذى يود الإيقاع بين الأحباء . فإذا أنت لم تبادر بالقطيعة قاومت الهدف الذى قصد إليه الشيطان . وفى هذا يقول سيد المرسلين : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » . ويقول بعض السلف : « ود الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه فإذا انقيتم من محبة عدوكم؟ ». وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه ، وقال : إنى قد اعتللت فإن شئت أن لا تعقد على صحبتى لله فافعل . فقال : ما كنت أحل عقد أخوتك ، لأجل خطيئتك أبداً . ثم عقد أخوه بين نفسه وبين الله : أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه . فطوى أربعين يوماً ، وكل يوم يسأل أخاه عن هواه ، فكان أخوه يجيبه : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه .

والخلاصة أن ابتداء معاشرة الفساق محذورة ، كما أن مفارقة الإخوان والأحباب محذورة .

ذا عن زلته فى حق الله ، وخطئه فى دينه . أما زلته فى حقك

فما يختلف اثنان فى وجوب العفو والاحتمال ، وإذا كان العفو مندوباً إليه فى حق الناس جميعاً ، فهو فى حق الأخوة من أول الواجبات .

ويجب تنزيه صاحبك عن قصد الإساءة إليك . بأن تفسر ما يصدر منه على معنى جميل . وأكثر ما يحدث بين الناس من خلاف إنما هو من سوء الفهم لما يقولون ، ولما يفعلون . وكثيراً ما تصدر الكلمة بريئة يؤيد بها القائل وجهتك ، ولكنك بسوء الفهم والظن تحسبه يعارضك . وأكاد أجزم بأن تسعاً وتسعين فى المائة مما يحدث بين الناس من خلاف وشجار مرجعه لسوء التفسير لحادثة ما أو لكلمة قيلت بقصد حسن ففهمت على غير وجهتها . وأكثر يحدث ذلك بين الأزواج والأحباب . . . وعليكم بمراجعة الغضب الدفين الذى يقوم بين متحابين لتعلم أن ذلك كله مرجعه إلى كلمة قالتها الزوجة لصالح الزوج ففهمها نقداً له ، أو إلى كلمة قالها الزوج ففهمتها الزوجة على محمل غير كريم . . .

فليكن رائدنا دائما أن نسأل المتكلم عما يريد بكلامه لنفهم قبل أن نحكم ، ولنتبين قبل أن نغضب .

(٣)

ومهما يكن من شيء فينبغي أن تستنبط لهفوة أخيك الأعذار. فقد قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا. فإن لم يقبله قلبك ، فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فأنت معيب لا أخوك . . . وعليك أن تسترضى نفسك نيابة عن أخيك حتى ترضى ، وقد قال الشافعي : « ... من استرضى فلم يرض فهو شيطان » وقال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر : ما شتمت أحداً قط ، لأنه إن شتمنى كريم فأنا أحق من غفرها له ، أو لئيم فلا أجعل عرضى له غرضاً .

وإذا بادرك صديق بالاعتذار بعد الإساءة فقد أوفى ، وعليك بقبول العذر مهما كان الوزر ، وسواء أكان صادقا أو كاذبا . وفى الحديث : « من لم يقبل من متنصل عذراً ، صادقا كان أو كاذباً ، لم يرد على الحوض » :

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ
وكنت أجازيه ، فأين التفاضل ؟

ويدعو بعضهم إلى ترك المعاتبة فلا تعاتب أخاك على فعله

خشية أن يجر العتاب إلى مالا يحمد : « إذا واخيت أحداً فى هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه . فإنك لا تأمن من أن ترى فى جوابه ما هو شر من الأول » .

ويذهب الأدباء إلى أن العتاب يصفى الوداد ، ويذهب الأحقاد :

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب

وقال بعضهم : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة . وقال على رضى الله عنه : لا تقطع أخاك على ارتياب ، ولا تهجره دون استعتاب .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن . ومن كلام زعيمنا الكريم : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدى الله ، ألا من كانت له عند الله يد فليتقدم . فلا يتقدم إلا من عفا عن مذنب » .

فكيف بمن عفا عن أخيه ! ؟

الإخلاص والوفاء

(١)

والإخلاص هو أن يكون الرجل لصديقه فى غيبته وبعده ، ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه ، مثل ما يكون له فى شهوده ومعاشرته . فمن حقيقة المؤاخاة فى الله عز وجل إخلاص المودة بالغيب وفى الشهود . ويقال : إن مسروقا أدان دَيناً ثقيلا ، وكان على أخيه خيثمة دَين ، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم ، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق سراً وهو لا يعلم[1] .

فالإخلاص استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة ...والاختلاف والتفاوت فى شىء من ذلك ، مماذقة فى المودة . وهو دخل فى الدين ، ووليجة فى طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة . فإن حق

---

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١

الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق ، فلا جرم أجره جزيل لا ينالله إلا موفق[1] » !

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

وما الخدن إلا من صفا لك وده

ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

ومن الإخلاص أن لا تصادق عدواً لصديقك . وقد قال الشافعى : « إذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشتركا فى عداوتك » .

وكما يكون الإخلاص باستواء الغيب والحضور يكون بالتفدية بالنفس ، وتعريض شخصك للمعاطب وفاء لصديقك . عن أبى على الرباطى قال : صحبت عبد الله الرازى وكان يدخل البادية فقال : على أن تكون أنت الأمير أو أنا . فقلت : بل أنت . فقال : وعليك الطاعة . فقلت : نعم . فأخذ مخلاة ، ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره ، فإذا قلت له : أعطنى . قال : ألست قلت أنت الأمير ؟ فعليك الطاعة . فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسى إلى الصباح وعليه كساء ، وأنا جالس

---

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٤٥

يمنع عنى المطر . فكنت أقول فى نفسى : ليتنى مت ، ولم أقل أنت الأمير !

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيه شمله ليجمعك

والإخلاص للصديق يستدعى أن يكون قلبك فارغا من الضغينة عليه ، خالياً من العتب ، صافياً وده ، غير مشوب بشائبة . وجاء فى التوراة نعتا لأمة محمد عليه الصلاة والسلام : « إنه لا يحل لامرىء أن يخرج من عتبة بابه ، وفى قلبه سخيمة على أخيه » .

(٢)

والوفاء هو أن تكون لأخيك بعد موته كما كنت له فى حياته ، فينتقل الحب والود والإخاء إلى أهله وأصدقائه . وكان من الصالحين من يخلف أخاه فى عياله بعد موته أربعين سنة لا يفقدون إلا وجهه . ولا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل ما يتعلق به ، حتى الكلب على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب — والتعبير للغزالى عليه رحمة الله ! — أما تعبير الشعراء

فى ذلك فإنهم يرون الشمس على حائط أحبتهم أبهى وأجمل منها فى أى مكان آخر ، وأن النسمة التى تمر بديارهم أطيب منها وهى تمر بأينع الرياض . ومنهم من يقبل الجدار ، ويبكى على الديار .. !

وقد عقد صاحب العقد الفريد فصلا بعنوان : مواصلتك لمن كان يواصل أباك . ويروى من حديث أبى شيبة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تقطع من كان يواصل أباك ، تطفىء بذلك نوره ، فإن ودك ود أبيك » وينقل عن أبى بكر : الحب والبغض يتوارثان . وقال عبد الله بن مسعود : من بر الحى بالميت أن يصل من كان يصل أباه .

ومن الوفاء أن تكون المودة فى الله ، وليست قائمة على غرض من الأغراض . لأن مثل هذه المودات تستنفد إذا استنفدت أغراضها ، وتزول بزوال أسبابها . وألا تكون مع حسد فى دين أو فى دنيا . ولهذا وصف الله عباده بقوله : « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » . وقد فسر وجود الحاجة بالحسد . وكيف يتأتى منك الحسد لأخيك . ومعنى الحسد

تمنى زوال النعمة عنه . وأنت ترى فيه نفسك . فكأنى بك تتمنى زوال النعمة عنك ، وما هذا بخاطر مفكر أو عاقل .

ومن الوفاء ألا يتغير حالك مع صديقك بارتفاع شأنك وعلو قدرك ، وعظم جاهك بولاية أو منصب أو مال وتغير النفوس بما يطرأ عليها من أحوال دليل على ضعتها ولؤم طبعها . والنفوس الكريمة هى التى لا يزدهيها عز طرأ ، ولا فقر نزل ولهذا أوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك ، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك ، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقالت الحكماء : لا شىء أضيع من مودة من لاوفاء له ، واصطناع من لا شكر عنده . والكريم يود الكريم عن لقية واحدة . واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة صديق كلما استغنيت عنهم وأعداء إذا جهد البلاء

ومن الوفاء ألا توافق أخاك فيما يخالف الحق فيما يتعلق بالدين ، والموافقة له فى هذا غش وخداع ، وليس من النصح أو الوفاء ... وعليك أن تقول له كلمة حق لتصلح به أمر دينه من غير استحياء أو تجمل ، مسترشدا بخلق الدعوة الحكيمة

والموعظة الحسنة . وكان الشافعى — رضى الله عنه قد آخى محمد بن الحكم ، وكان يقربه ، ويقبل عليه ، ويقول : ما يقيمنى بمصر غيره . ولما اعتل محمد عاده الشافعى وقال فيه :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وقد اعتقد الناس أن الشافعى سيفوض إليه أمر حلقته بعد وفاته بسبب هذا الود ، فقيل له فى علته التى مات فيها : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ . فاستشرف له محمد بن عبد الحكم ، وهو عند رأسه ليومئ إليه . ولكن الشافعى — رضى الله عنه — قال : سبحان الله ! أيشك فى هذا ؟ ! أبو يعقوب البويطى .. ومع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله إلى جوار ما بينهما من علائق ، ولكن كان البويطى أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . وبهذا نصح الشافعى لله وللمسلمين ، تاركا المداهنة ، مؤثراً الصالح العام ، على عواطفه الخاصة نحو صديقه !

وتمام الوفاء إحساسك بأنك وأخاك جسم واحد فتجزع

لفراقه . وتنفر من البعد عنه ، وتحن إليه ، وتشتاق لرؤيته .
وكانوا يفضلون نوائب الزمان على فرقة الأحباب :

وجدت مصيبات الزمان جميعها
سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وقد أنشد ابن عيينة هذا البيت وقال :

« لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ، ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي » .

ومن الإخلاص ألا تسمع بلاغات الناس عن صديقك ، وخاصة ممن يلبسون حلل المودة لكى يجدوا الفرص المواتية للطعن فى أعراض من يريدون . ولو صح منهم الوداد ماطاب لهم الانتقاص .

ومن الإخلاص للأخوان إخلاص الدعاء لهم بالخير فى حياتهم ، وبعد مماتهم . فتدعو لهم بمثل ما تدعو لنفسك ولأهلك ولولدك . وأنت حين ما تدعو لهم إنما تدعو لنفسك على التحقيق مصداقا لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب ، قال الملك : ولك مثل ذلك » .. وفى لفظ آخر : « بك أبدأ يا عبدى » .

وإيثار أخيك بالدعاء من دواعى الإخلاص الذى تستجاب بسببه الدعوات ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « يستجاب للرجل فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه » . وفى حديث آخر : « دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لا ترد » .

وقد علمت أن المرء إذا مات انقطع عمله إلا من صدقة جارية ، أو من علم ينتفع به ، أو من ولد صالح يدعو له . ومثل الولد الأخ الصالح ، بل أين الولد من الأخ ؟ ! وفى ذلك يقول الأصفهانى : « أين مثل الأخ الصالح ، أهلك يقتسمون ميراثك ، ويتنعمون بما خلفت . وهو منفرد بحزنك ، مهتم بما قدمت ، وماصرت إليه ، يدعو لك فى ظلمة الليل ، وأنت تحت أطباق الثرى » .

وإذا كنت تهدى إلى أخيك وهو حى ، فاعلم أن الهدية إليه وهو فى قبره الدعاء . وفى ذلك يقول بعض السلف : الدعاء للأموات ، كالهدايا للأحياء !

الواجب السابع :

ترك التكلف

(١)

ساءلت نفسى كثيرا بعد أن عشت فى المدن ، ورأيت من طباع سكانها النفور من الضيوف ، والانقباض من الوافدين إليهم ، وعـــدم الترحيب بدعوة الإخوان إلى طعام أو إلى شراب .

ما هو السر فى انطباع أهل الحضر على هذا الخلق مع ما هم فيه من بسط فى الرزق ، وسعة فى العيش ، وفضل فى النفقة ؟ وما هو السر فى انطباع أهل الريف وأهل البداوة على الكرم ، والترحيب بالنازل مع ما هم فيه من شظف العيش ، وخشونة المقام ؟

وقد وجدت الجواب فى قول الفضيل :

« إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه » .

وإذا بحثت فى طبائع أهل المدن وجدت أنهم لا يقلون عن أهل الريف حبا للتضحية ، وإيثاراً للبذل — وكثير

من أهل المدن نازحون من الريف — وإنما يفسد طبيعتهم من هذه الناحية حبهم للتكلف فى جميع الأمور ، والظهور بمظهر مجسم عن مظهرهم الطبيعى . مما لا تواتيهم به الفرص فى كل وقت . فيأثرون الراحة والفرار من الميدان . ويندر أن يدعو أحدهم إخوانه إلى طعام أو يرحب بهم فى استضافة ! وقد يحدث أحيانا . ولكنه يرهقهم ويكلفهم من أمرهم شططاً .

والملاحظ أن عادة التكلف تتقدم بتقدم الارتقاء الحضارى . وكلما كان المرء قريبا من البداوة بعد عنه التكلف واقترب من الإيثار ، والرغبة فى البذل والشوق إلى استضافة الأصدقاء .. وقد تشاهد الطالب البسيط يؤثر زواره بالطعام والمقام ، لأنه يأمن النقد ، ولا يغرق فى التكلف . فإذا ما استوى عوده ، وأصبح رجلا له راتب كبير ، ومظهر وقور ، حرص على ألا يعرض نفسه لمواطن الامتحان ، ويخشى دعوة زملائه وأقرانه إلى مقام أو إلى طعام خشية أن يدركوا مستواه المعيشى . ولأن التقدم الحضارى الذى كسبه بالعلم وبالحياة العصرية ، وبالتقدم فى السن يحتم عليه

الظهور بمظهر براق ، مما يدعوه إلى التكلف ، فيثقل على نفسه دعوة الناس إلى الطعام .

وقد لاحظت أيضا أن الأشخاص الذين لا يحرصون فى منازلهم على الظهور بمظهر منتفخ هم أسرع الناس إلى دعوة الإخوان ، وأحرصهم على التودد لهم ، بتقريب ما حضر من طعام أو شراب ، دون افتعال أو اعتمال .

وأقل الناس بعداً عن الإخوان ، وفراراً من لقائهم هم الذين يضعون لأنفسهم مظهرا خاصا فى أعين الناس ، ويحرصون عليه دائما ، فلا يحبون أن يراهم أحد فى مستوى أقل من هذا المظهر البراق .

ولاحظت أيضا أن موائد أمراء البادية العربية فى الزمن السابق كانت تمد للطاعمين فى كل آن ، وفى كل حين وبمناسبة وغيرها . وذلك لأن الموائد لم تكن تزيد على طعام طيب بسيط يسد الأفواه ، ويملأ البطون .

وفى الأيام الأخيرة شاهدنا هذه الموائد مرفوعة ، بعد أن كانت مبسوطة ، شاهدناها مرفوعة على موائد عصرية

فاخرة ، وقد صفت حولها المقاعد الأنيقة ، وزينت بالطريقة الحديثة . . .

وبارتفاعها عن الأرض إلى مستوى الحضـــارة ، ومستوى التأنق والتكلف ، رفعت عن العامة ، فلا تمتد إليها كل يد ، ولا ينالها كل جائع ، وصارت مطوية فى الكثير ولا تبسط إلا قليلا .

(٣)

لم هذا كله ؟ ! لأن أمراء البادية آثروا التكلف ، وأغرموا بالتفنن . وقد شاهدت هذه الموائد مبسوطة فى أيام عزيزة مع أن كثيرا ممن سبقونى تحدثوا عن كثرتها فى الماضى يوم كانت مبسوطة على فراش البساطة ، يقعى حولها الآكلون ، ويتجمع حولها المشردون من كل صوب .

وإن أخشى ما أخشاه أن ترتفع درجة الحضارة ارتفاعا كبيرا ، فتختفى البساطة كلها ، وترتفع بارتفاع الحضارة موائد الأمراء فلا تبسط أبداً ! .

من هذه الملاحظات نستطيع أن نتبين أثر التكلف فى الطبائع البشرية ، وأنه يقتل كثيرا من خصائص النفوس الكريمة ، ويجعل الحياة عبئا ثقيلا ، ويمنعنا من أن نعيش

وفق ما نبتغى وما تدعو إليه طبائعنا . وكم من مرة ومرات تحدثك نفسك بدعوة أخ أو صديق أو زائر إلى منزلك ولكنك تحجم خوف ألا توفق فى الظهور بالمظهر اللائق ! .

والحرص على إرضاء الناس ، والاستحواذ على ثنائهم شرك بالله لا يليق بمن أخلص العبادة للخلاق . وقد قيل للحسن : يا أبا سعيد ، إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك ، وتعنيتك بالسؤال . فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك فإنى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ، وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس ، لأنى علمت أن خالقهم ، ورازقهم ، ومحييهم ، ومميتهم لم يسلم منهم ، وقال موسى — عليه الصلاة والسلام — : يا رب احبس عنى ألسنة الناس . فقال : يا موسى هذا شىء لم أصطفه لنفسى ، فكيف أفعله بك ؟ .

فأنت يا أخى إذا أقمت لنقد الناس ، أو لحكم الخلائق مكاناً فى قلبك فقد أتعبت نفسك ، وحجبك ذلك عن السير فى خطتك ، والمضى إلى غايتك . ولكن عليك أن تسقط

الخلائق من الحساب ، ما دمت ماضياً فى طريقك ، مستبصراً بهدى رسولك الكريم .

وعليك بترك التكلف مع إخوانك فإن إظهار التكلف مع الأخ دليل على أن المودة بينهما ليست خالصة ولا صافية . وفى ذلك يقول الجنيد : « ماتواخى اثنان فى الله فاستوحش أحدهما من صاحبه ، أو احتشم إلا لعلة فى أحدهما » . وقال عليه الصلاة والسلام : « شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة ، وألجأك إلى اعتذار » وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف ، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وليكن شعورك أيها الأخ بحضرة أخيك كشعورك وأنت منفرد ، فلا تتحفظ ولا تتكلف حتى لا يثقل عليك أخوك ، ولا تثقل على نفسه . فإن إطلاق النفس على سجيتها أروح لها من إقامتها على نهج خاص من الجلوس أو الحديث أو الطعام . وكان جعفر بن محمد الصادق — رضى الله عنه — يقول : أثقل إخوانى على ، من يتكلف لى ، وأتحفظ منه . وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى .

(٣)

ومبالغتك فى الطاعات ، وفى النوافل على غير ما تعودت فى خلوتك تكلف لأخيك ما ليس فى طبعك ، وهو إلى جانب ذلك رياء وخداع . فعليك باستواء حالك فى الانفراد وفى الاجتماع . كما أنه ليس من حق صديقك الانتقاص من مكانتك إن رأى منك تقصيراً فى أداء هذه النوافل . وقد جعل ضابط الإخاء الصادق :

« لايزيد المرء عند أخيه بر ، ولاينقص عنده بمعصية » .

وكان الصوفية يتآخون على أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه : صم . وإن صام الدهر كله لم يقل له : أفطر . وإن نام الليل كله لم يقل له : قم . وإن صلى الليل كله لم يقل له : نم !

وإذا كان التكلف بغيضاً بين الإخوان فقد كرهه الرسول — عليه الصلاة والسلام : « أنا والأتقياء من أمتى برآء من التكلف » . كما كرهه الصحابة — رضوان الله عليهم — وقد قال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين .

وإسقاط التكلف بين الأخوين يديم الألفة والمحبة وقد قيل : « من سقطت كلفته دامت ألفته . ومن خفت

مؤنته دامت مودته » . ولنقف طويلا عند هذا المبدأ الجميل ولنجعل نصب أعيننا أن تخف المؤنة بيننا . وحسبك من أخيك ما يقدم إليك ولو تمرة . بل حسبك من أخيك بسط وجه وحسن لقاء !

ومن تمام الانبساط وترك التكلف ألا تخفى على أخيك سراً من أسرارك ، وأن تشاوره فى أمورك كلها . وقد قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » . وأن تشكو إليه ما تحسه من أحزان وما يصيبك من أزمات ، وأن تبثه أفراحك ، وتحدثه عن آمالك . وقد قيل : « إذا حدثت أخاك بأفراحك تضاعفت ، وإذا حدثته بهمومك تناصفت »

وكلما تم الاتحاد بين الأخوين زال كثير من قواعد الاجتماع وآدابه العامة كالاعتذار إلى صاحبك . والقيام له عند القدوم . ويقول الغزالى فى ذلك :

« فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية ، فلا يسلك به إلا مسلك نفسه . لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها . . »[1] .

---

(١) الأحياء حـ ٢ ص ١٥٣ ، ٢ — ص ٨ حـ ٢ .

ويجب إسقاط التكلف بين الإخوان فى الطعام . وقد فسر بعض السلف « التكلف » بأن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت ، بل تقصد زيادة عليه فى الجودة والقيمة . وقال بعضهم : ما أبالى بمن أتانى من إخوانى فإنى لا أتكلف له ، إنما أقرب ما عندى ، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه وملته . وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لى فيتكلف لى فقلت له : إنك لا تأكل وحدك هذا ، ولا أنا ، فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجىء . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه وغيره من الصحابة أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر . ويقولون : لا ندرى أيهما أعظم وزرا ، الذى يحتقر ما يقدم إليه ، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟ .

وتلك حكمة جامعة تصور جبن المرء عن إظهار صفحته الصادقة لإخوانه من غير تكلف ، وأن ذلك منه لا يقل وزراً عن الزائر الذى يحتقر ما يقدم إليه من طعام ، وما أظن أن ذلك يفعله إلا النساء . فما من عادة الرجال الحديث عن الطعام وعما قدم ؛ وعما كان يجب أن يقدم وإنما تلك عادة اللكع من السيدات .

عدم التكليف

وفرق ما بين التكلف والتكليف أن الأول انبعاثى من تلقاء الشخص نفسه دون أن يدفعه إلى ذلك دافع خارجى ، أو مؤثر أجنبي ، وإنما يكون الدافع إليه الحرص على الظهور والرغبة فى التفوق ، والبحث عن الثناء . كما سبق أن بينت .

أما التكليف فهو أن تحمل صاحبك على فعل من الأفعال لم يكن يؤديه لولا حملك عليه ، وطلبك إليه . فالمؤثر هنا خارجى .

والتكلف مطالب محاربته من نفسك حتى لا تتعبها بمودة الإخوان ، وتآلف القرناء . أما التكليف فمطالب محاربته حتى لا تتعب غيرك بما يشق عليه .

وقد علمت فيما سبق حقوق الإخوان فى المال ، وفى الجهد ، وفى اللسان . ولكن ليس معنى أن هذه حقوق الأخوة أن نتخذ من الإخوان مطية مسخرة لتحقيق أغراضنا وأهدافنا ، وأن نحول تلك العاطفة الروحية الجميلة

إلى سلعة تجارة قبيحة . بل ليتذكر كل أخ : أن الحقوق التى ذكرناها إنما هى واجبة عليه لأخيه . وليست واجبة على أخيه له . وذلك مبدأ الإيثار والتضحية . وهو أن ترى له عليك ولا ترى لك عليه شيئاً ، وذلك شأن المتفضل بالجميل دائماً . وقد قال بعضهم: «من اقتضى من إخوانه مالا يقتضونه منهم فقد ظلمهم . ومن اقتضى منهم مثل مايقضونه فقد أتعبهم ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم» . وقال بعض الحكماء : «من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا . ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم . ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا» . فعليك بطلب السلامة . وأن تجعل نفسك دون قدرك ، وترى أخاك أولى بالتكريم والتجلة دونك . فلا تكلفه ما يشق عليه ، ولا تحاول أن تستمد من جاهه أو ماله ، ولا تكلفه التواضع لك ، ولا التفقد لأحوالك ، ولا تستخدمه فى شئونك . بل لا تقصد من محبته إلا وجه الله تعالى ، تبركا بدعائه ، واستئناساً بلقائه .

وكما لا تتقاضى شيئاً من ماله أوجاهه . لا تتقاضى شيئاً من حيائه . فلا تحمله على الاعتذار إذا أساء ، ولا تنتظر

منه الشكر إذا أحسنت إليه . بل لتعتذر إلى نفسك بنفسك وتشكر الله على توفيقك للقيام ببعض شئون أخيك . وقد قيل : « لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسك ، ويكفيك مؤنة نفسه » .

وقد يكون عجيباً أن نطالبك بحقوق أخيك ، ولا نرى لك على أخيك هذا الحق ! ولكن هذا منهج النفوس الخالصة التى تؤاخى لله . ولا تؤاخى لحظوظ نفسها ، وتكون نيتها أن تفيد وتنفع ، لا أن تستفيد وتستغل . وقد قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان فى هذا الزمان . أين أخ لى فى الله ؟ ! فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا . فلما أكثر ، قاله له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ، ويتحمل أذاك ، فهذا لعمرى قليل ! وإن أردت أخا فى الله ، تحمل مؤنته ، وتصبر على أذاه ، فعندى جماعة أعرفهم لك ! فسكت الرجل . وقد أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — : إن أطعتنى فما أكثر إخوانك .

وطاعة الله لا تكون إلا بالصبر على أذى الإخوان .

ومواساتهم ، وبهذا تكثر الإخوان . وقال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بينى وبينهم خلاف ، فإنى كنت معهم على نفسى .

وبالحكمة والتضحية والوداد يصان الإخاء . وفى هذا يقول معاوية : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ماانقطعت ، لأنهم إذا أرخوا شددت ، وإذا شدوا أرخيت » وقد كانت هذه السياسة الوديعة سبباً فى استقرار الأمور له ، فى وقت كان من العسير أن تجتمع الكلمة لمثله !

ولا يستقيم حالك مع الإخوان إلا إذا رجعت إلى نفسك ، وطببت لكبريائها ، وعالجت غرورها . حتى ترى نفسك دون إخوانك ، فتحسن بهم الظن ، وتسىء الظن بنفسك . وإذا بلغت هذه المرتبة من التواضع ، فاعلم أنك عندهم أخيرهم . ولذلك قال أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى . قيل : وكيف ذلك ؟ . قال : كلهم يرى لى الفضل عليه ، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى . ولهذا قال سفيان : إذا قيل لك : ياشر الناس ، فغضبت ، فأنت شر الناس . إذ ينبغى أن تعتقد فى نفسك أنك شر الناس ،

وإلا فقد وضعت نفسك فى منزلة لاتدرى هل يرفعك الله إليها . ولا يكون هذا إلا غرورا وخداعا .

وعليك إن رأيت من أخيك هذا التواضع أن تكبر ذلك فيه ، ولا تعد ذلك من بلهه ، أو ضعفه ، أو صغاره أمامك . بل كلما ازداد تواضعاً ازددت له إكباراً . وكلما ازداد تقرباً زدت له إعزازاً . وإلا كنت لئيما :

تذال لمن إن تذللت له
يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزال
على الأصدقاء يرى الفضل له

فإن وسوست لك نفسك بأنك تفضل صاحبك ، فقد احتقرته . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه » .

وقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثل فى الإخاء حينما آخى علياً فشاركه فى العلم ، وقاسمه فى البدن ، وزوّجه أفضل بناته .

ومن التكليف أن يقترح الأخ على أخيه إذا زاره

أو استضافه نوعا من الطعام ، فربما يشق على المزور إحضاره ، ولا تتيسر له الظروف لتقديمه فيحار ، إما أن يتعب نفسه ويشق عليها ليحققه ، أو يجد فى نفسه حرجا وحياء لعدم استجابته لما طلب أخوه . أما إذا خيره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه . وكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إذا خير بين شيئين اختار أيسرهما . وقد يحدث أن يطلب الزائر إلى مضيفه حاجيات تعجزه وتدينه وقد بليت الطرق الصوفية فى العصور الأخيرة بهذا اللون من الاستغلال . فترى المزيف المدّعى منهم ينزل على إخوانه فيقترح عليهم إقامة ولائم خاصة ، وتقديم ألوان فاخرة من الطعام . ومقادير مشروطة ، ولا يجد هذا الدعى لفرض سلطانه إلا البله من صغار المزارعين . وكثيراً ما يحرجهم ذلك ، ويضطرهم إلى الاستدانة ، أو بيع ماشيتهم الوحيدة التى يعتمدون عليها فى كسب قوتهم . ولو تعلم هؤلاء الريفيون الأغرار قوة الحجة ، ومعارضة الضلال لاستقام الحال ، كما كان قبل ، فقد روى الأعمش عن أبى وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ، فقدم إلينا خبز شعير وملحاً

جريشاً . فقال صاحبي : لو كان فى هذا الملح شعتر كان أطيب . فخرج سلمان فرهن مطهرته ، واشترى سعتراً . فلما أكلنا . قال صاحبي : الحمد لله الذى أقنعنا بما رزقنا . فقال سلمان : لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتى مرهونة ! ! .

وإذ كان تكليف الأصدقاء أنواعا من الطعام خاصة قد يثقل عليهم فيجب على الأخ أن يتحاشاه ، فإن كثيرين يدركون الحالات الخاصة التى يجوز لهم فيها التبسط مع الإخوان ، وفرض إرادتهم عليهم وذلك حين ترفع التكلفة ويزول التحفظ ، ولا يجد الأخ غضاضة من الرفض عند عدم القدرة أو عند عدم تيسر المطلوب . فإذا وجدت هذه الحالة — والتى يجب على المرء أن يثق من وجودها أولا — فله أن يطلب إلى أخيه ما شاء ، فإن ذلك مما يسر له صديقه . وقد كان الشافعى نازلا عند الزعفرانى ببغداد ، وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية ، فأخذ الشافعى الرقعة فى بعض الأيام ، وألحق بها لوناً آخر بخطه . فلما رأى الزعفرانى ذلك اللون أنكر . وقال : ما أمرت بهذا فعرضت عليه الرقعة ملحقا فيها خط الشافعى .

فلما وقع على خط الشافعي فرح بذلك وأعتق الجارية . . .

ولكن كثيرين فى الزمن الحاضر يتعجلون الوصول إلى هذه الحالات قبل أوانها ، فتراهم يستبيحون لأنفسهم بمجرد الإخاء أن يفرضوا على إخوانهم ما يريدون ، وأن يغشوا منازلهم من غير دعوة، وأن يفتشوا أوراقهم ومكاتبهم من غير استئذان . وقد لا يدركون أن هذه الإخوة من طرف واحد أملاها على قلوبهم الاندفاع نحو أغراض يبتغوها

ولهذا يجب على الإخوان التثبت المتتابع من قوة العلاقة بين إخوانهم، حتى لا يبيحوا لأنفسهم الاختلاط بهم والتدخل فى شئونهم ، والاقتراح عليهم إلا بعد يقين وعن بينة .

يا أخى . .

يا أخى . . آن لك أن تعرف موضعك بين البشرية جمعاء.

فى روسيا يتنادون فيما بينهم : يا رفيق . وفى الشرق حارت الحكومات فيما تتنادى به . !

فألغت الألقاب ، واستبدلتها بكلمة « السيد » فى العراق وسوريا ومصر :

ورأت مصر بعد ذلك أن هذا اللقب وصف فضفاض ..

ولكنها من الأسف عادت إليه من جديد . . !

وكأنه عز عليها ألا يكون فى مصر أسياد !

وتاريخ البشرية شاهد صادق على أن الشر لا يأتى إلا من هذه السيادة .

وما ترتفع رءوس الطغاة إلا حينما يصبح لمدلول كلمة « السيد » معنى !

وما حُرفت الأديان إلا حينما زحفت إلى الرسل معنى السيادة . وجرّت السيادة فى أذيالها وصف الألوهية ، فسمعنا عن « الثالوث المقدس » فى تاريخ المسيحية ؛ وصار

صاحب مصر الإله الأعلى : ما عرفتم لكم إلهاً غيرى . . !

أما محمد عليه الصلاة والسلام — فقد وضع نفسه من ربه موضع الخضوع والعبودية . وها هو ذا القرآن الكريم يقص علينا قصة تكريمه العظيم حينما أراد أن يشرفه بالحضرة الإلهية فيسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يرفعه إلى الملأ الأعلى ومع هذا كله يصفه بقوله : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .

ومع أن محمدا — عليه الصلاة والسلام — يعلم موضعه بين البشرية وأنه سيد آدم ولا فخر ؛ مع ذلك كله فهو يأبى أن تكون له السيادة بين الناس فينهى عن ذلك ، ويطلب منهم : « لا تسيدونى » ومن معنى حديث له : خيرنى ربى فى أن أكون ملكا رسولا أو عبدا رسولا ، فاخترت أن أكون عبدا رسولا .

واختلفت الأئمة فيما بينهم فى كيفية دعاء الرسول — عليه الصلاة والسلام — حين يُنادى باسمه فى الأذان أو فى الصلاة . فذهب الأئمة كلهم ما عدا الشافعى إلى أن

يُنادى باسمه المجرد : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » . وذهب الشافعى وحده إلى أن يُسيد فى النداء ودعاء التشهد . ولا ندرى من أين جاء به .

فهل هناك من ولد آدم من هو أفضل من محمد — عليه الصلاة والسلام ؟ . ومع ذلك فلم يرض لنفسه السيادة ، وما ناداه أحد من صحابته بها . وما رضى أن يُسمى مناصروه ومن معه من المسلمين أتباعا . وإنما سموا صحابة محمد .. فليسوا بأتباع ولا ذيول له ، وإنما هم صحابته . وحينما نظم الصفوف لم يجعل سيداً ومسوداً وإنما جعلها أخوة وإخاء . وكان هو نفسه أخاً لصاحبى آخر . وكانوا إذا اجتمعوا لعشاء لم يجلس جلسة الجبار يخدمه من حوله ، بل قام يشاركهم ويجمع الحطب معهم .

وحينما يتحدث الله عن رسوله فى كتابه يُتحدث عن الصحابة يقول : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . فلا يفرق بينه وبينهم .

وحينما كان يتحدث عن محمد — عليه الصلاة والسلام وحده لم يستعمل معه سوى ضمير المفرد لا ضمير الجماعة

فيقول : ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر .. ولا يحزنك قولهم إن العزة لله . . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق . .

وحينما كان يخاطب من غير تخصيص كان يخاطب الرسول وصحابته فى ضمير واحد . . « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن » . . « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » . . « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » .

والوصف المردد لمحمد فى القرآن هو لفظ « عبد الله » . « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا . . تبارك الذى نزل الفرقان على عبده . . أليس الله بكاف عبده . . فأوحى إلى عبده ما أوحى . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات . . »

* * *

فانزلوا من علياء سمائكم أيها السادة . وحدقوا من هذا الغرور .

وارفعوا رؤوسكم أيها العبيد ، واعلموا أن أكبر رأس لا ترتفع عن الأرض أكثر مما ترتفع عنها أصغر رأس . . .

ارفعوا رءوسكم ليصبح الجميع إخواناً .

أيها الأخ . . .

لا تدع الألقاب العلمية أو الدرجات المدرسية أو المهنة الصناعية تفرق بينك وبين الآخرين .

فلا تنادِ : يا دكتور ، أو يا أستاذ ، أو يا مهندس ، أو يا حضرة الضابط أو غير ذلك من الألقاب .

ولكن ألغ هذه الاعتبارات ، وعد إلى الصلة التي ربطت بها السماء النوع البشرى عامة ، والمسلمين خاصة . وقل له :

تعال يا أخي . . .

أشكرك يا أخي . . .

تقدم يا أخي . . .

* * *

إن لكلمة « أخي » عذوبة في الآذان ، ووقعاً في الجنان ، ورنة في الأبدان ، بما تولده من ثقة بين الطرفين ، تجعل الكبير لا يحس بأنه فوق ، ولا الصغير يشعر بأنه تحت . !

تقدم يا أخي إلى رئيس الجمهورية وقل له: يا أخي نجيب.. وما أظنه يغضب ، وما يعنيك من غضبه إن غضب لها ..

أنت أيها الخادم فى مدرستك تقدم إلى مدير المدرسة أو ناظرها وقل له : يا أخى . .

وأنت أيها الممرض فى مستشفاك تقدم إلى طبيبك وقل له : يا أخى .

وأنت أيها الجندى داخل ثكنتك تقدم إلى ضابطك وقل له : يا أخى .

وأنت أيها العامل البسيط داخل مصنعك تقدم إلى صاحب المصنع وناده : يا أخى .

هذا هو اللفظ الحبيب ، وما أعتقد أن هناك من يتضايق منه . . .

حتى هؤلاء الطغاة لو كان عندهم عقل . . .

ألسنا نُرضى كبرياء هؤلاء الطغاة بما نخلعه عليهم من ألقاب وأنساب .

وهل هناك تكريم لحدثك أعظم من أن تضعه موضع أخيك .

إن الإنسان لا يحقر - بعد والديه - أكثر من أخيه .

ولا يتمنى الخير لإنسان قبل أخيه ، ولا يخلص لإنسان إخلاصه لأخيه .

فأنت حينما تنادى أى مخلوق بهذا اللقب الحبيب فأنت تكرمه تكريما ما بعده تكريم ! .

* * *

وفرق ما بين هذا النداء الطلى الجميل : « يا أخى » وبين النداء التى اتخذته الدول الشيوعية : « يا رفيق » عميق عميق ودقيق دقيق .

إن الرفقة فيها معانى المصادفة التى تولدها أحيانا الزمالة فى العمل ، أو الزمالة فى الطريق ، أو الزمالة فى الدار ، أو غير ذلك ، فهى وليدة العوامل المادية المجردة . ولذلك كانت علاقة مادية جافة .

أما كلمة يا أخى . .

إنها السحر والله . . إنها الحب . . . إنها الإحساس النابع من القلب ، إنها العاطفة القوية الجياشة . إنها الروح العظيمة الموصولة بغيرها من البشرية . وأعضاء المجموعة الإنسانية .

يا أخى : إنه النداء العاطفى النبيل الذى يمكن أن تسمو إلى مداه علاقات الأفراد . وليس بعد هذه العاطفة عاطفة تربط بين شخصين .

يا أخى . . .

يا أخى الحبيب . . .

ضع يدى فى يدك لنعمل من أجل سعادة البشرية وتقديم العون للناس ، والله معنا .

سلسلة أدب الإسلام

١ ــ أدب الأخوة .

٢ ــ أدب الزواج

٣ ــ أدب المال : (قواعد المال)

٤ ــ أدب الطعام .

٥ ــ أدب اللباس .

٦ ــ أدب السفر .

٧ ــ أدب الدعوة والدعاة .

بمشيئة الله تصدر هذه الحلقات على فترات متتابعة تعالج أدب الإسلام وتعاليم الرسول (ص) على ضوء التجارب الحديثة .

للمؤلف يصدر قريبا بمشيئة الله :

نفسية الفراعنة

تحليل لنفسية الحاكم والمحكوم . ويرسل أضواء كاشفة على عيوبنا الخالدة وإليك بعض موضوعاته :

١ - تذكرة يا أستاذ . . !

٢ - فرعونية الأوضاع . . .

٣ - وفى العرب فرعونية .

٤ - وكيل الأزهر يلعب الحبل .

٥ - رجال عاشوا فى العهدين .

٦ - قبلة لأنشته .

٧ - الرجل المريض المنصب المريض

موضوعات شيقة من النقد اللاذع . . .

٧ قروش للاشتراك اتصل بالمؤلف : ٦ ش محمد على بمنيل الروضة . وعشرة قروش للنسخة بعد الطبع .